جدائل اللوز

"إيلياء"

www.ebibliomania.com

+201065534541
+201208868826
fb.com/Books.Bibliomania/
بيبلومانيا للنشر والتوزيع
fb.com/bibliomania.eg/
Insta:books.bibliomania/
Books ـ بيبلومانيا
fb.com/groups/Bibliomania.Books/
@BibliomaniaEg

جدائل اللوز

"إيلياء"

رواية لـ

إسلام سعود مطور

بيلومانيا
للنشر والتوزيع

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو نسخ مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو بطريقة إلكترونية أو بالتصوير أو ترجمته إلى أية لغة أخرى دون الحصول على موافقة الناشر مقدمًا.

All Rights Reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of Bibliomania Ltd.

書誌事項

- **عنوان العمل: جدائل اللوز**
- **نوع العمل: رواية**
- **المؤلفة: إسلام سعود مطور**
- **الطبعة الأولى 1440 هـ - 2018 م – القاهرة**
- **الطبعة الثانية 1440 هـ - 2018 م – القاهرة**
- **الناشر: ببلومانيا للنشر والتوزيع – مصر**

- **رقم الإيداع : 15513 / 2018**
- **الترقيم الدولي (ISBN): 978-977-6607-53-8**

- تدقيق لغوي: ببلومانيا بالمشاركة مع نورا خرّاط
- الغلاف: هيلا حسان جراب
- المدير العام: جمال سليمان
- العنوان: 38 شارع عمر المختار – الأميرية – القاهرة
- تليفون: 0020226061014
- محمول: 00201208868826 – 00201065534541 – 00201210826415
- صفحة الدار على موقع فيسبوك: https://www.facebook.com/bibliomania.eg/
- الموقع الإلكتروني: www.ebibliomania.com

المقدمة

مَن قَاتل من أجل شَخص، قَتل كلّ شيء ومعه نَفسه.

وَ من قَاتل من أجل فكرة، أَحيا كِتاباً أو علماً.

فَكفانا رهانات على الأَشخاص؛

ولنُراهن على الفكرة.

إلى: صديقي الوحيد سعود، السبب في وجود هذا الكتاب

وإلى كلّ الأشخاص الناجحين، العصاميين الذين لا يرتدون الأقنعة. عثراتك وظروفك كانت واضحة فتعلمتَ منها ونهضتَ ولم تجلس يومًا لتُمثل دور آخر، أو كالذين يدعون المثالية يوميًا ويبحثون عن ثغرات الغير ليرمموا بها نقصهم وما يخفون خلف ياقات قمصانهم المنمقة من دمار!

لك يا من ينطبق عليك أنك كنت يوميًا تنهض وتأكل من فطيرة التواضع، وليتمك في الثانية عشر من عمرك، لإجازاتك المدرسية الصيفية تحت كروم العنب لتجني مالا، ولفصل المحاماة الثاني في الخامسة والأربعين من عمرك الذي لم تتمه لأنك وضعت الحلم فينا مجددًا!

للأوراق التي كنت أكتبها منذ كنت صغيرة وتخبئها في جيب قمصيك الأمامي قبل الذهاب إلى عملك لتقرأها، ولاسم غاليتي في دفاترك وهاتفك!

قل لي أبي كيف بهذا كلّه "لا يعتصر القلب شوقا ويرتفع الحجبين عاليا كلّما مرَّ اسمُك بعد اسمي"!ولرفيقة دربك أمي، يا زهر اللوز خاصتي، وأول من صنع لي جدائلي!

ولروحك (تيتة مليحة)، "أخذتِ معك طرفا كبيرًا من الروح "

2018 .8 .8

22:51 ،Essen

هامش:

. إن لم تكن قويًا، لن تكون أنت، فالحياة لا تؤمن بمعاهدات السلام، تحب المتمردين، فأحدِث ثورتك وانقلابك لكن داخلك.

. حاول أن تقرأ الرواية بفصولها كاملة؛ فالكتب لا تُقرأ فقط من عنوانها وفصلها الأول.

. لا تحكم على أشخاصي قبل أن تبتعد قليلًا وتنظر إليهم بعينك أنت، وبما مررت به في فصول حياتك، فلكل منا زواياه المهجورة التي لم يكتشفها بعد.

. إن الأهم هو ما نقرؤه بين السطور، وما نسقطه على أنفسنا ونواجهها به، حتى أنا بعدما أنهيت كتابة هذا الكتاب اكتشفتُ أنني لم أنظر في المرآة منذ مدة وتفاجأت بشخصٍ جديد هو "أنا ".

"تعرفنا مُنذُ قليلٍ، قبلَ كِتابتي لهامشِ الخِتَامِ هذا"

تمت 13-8-2018

الفصل الأول

الكنعانية الصغيرة

الأشخاصُ كما الأشياء، لا تُوصف فقط بزواياها الحادة؛ وإنما بجوهرها ومراحل صقلها.

دوسيلدورف، DÜSSELDORF - ألمانيا

شهرُ آذار يُعلن موعدَ رحيلِهِ، الشمسُ ما زالتْ تظهرُ يومًا واحدًا وتختفي خلف الغيوم لباقي الأسبوع، رائحة خبز جدتي الساخن من علامات الصباح، تنتقل مع الهواء فيصبح ثقيلًا، ويغري بالنهوض، أحيانا كثيرة تكون رائحةُ القرفةِ التي تضيفها جدتي إلى خبزها أو الحلوى , ترافق الصباح فيغدو كلّ شي بلون الخشبِ حولك، وتستعدَّ لأن ترى الشتاء، على كلّ حال الربيعُ بقايا الشتاء في ألمانيا، والربيعُ عندي هو بقايا الذكرى.

كانت أمي ما تزالُ نائمةً، أغمضتُ عينيّ بقوةٍ وعددتُ للثلاثة ثم فتحتهما، وبحذر نهضت كقطة تنسل من تحت الشرشف حتى لا أوقظها، لكن أصوات أقدامي السريعة على الدرج الخشبي الممتد من غرف النوم إلى غرفة المعيشة كعادتي قاطعت كلّ الامتزاجات الصباحية الهادئة.

وجدتُ جدتي تجلس على الطاولة الخشبية ذات الزهورِ الصفراءِ الملونة -مازلت أذكر لونها كأنها أمامي الآن-، يتخللها زهرٌ بنفسجي اللون صغير، وكان الصمت يخيم على المكان، ورائحة الخبز والقهوة وحدها التي تتحدث وتلغي كلّ شيء آخر.

- صباح الخير جدتي.

- صباح الخير صغيرتي الجميلة "إيلياء"، نمتِ جيدا، أليس كذلك؟، أتريدين الخبز والحليب؟

-نعم لطفًا، جدتي سنعمل اليوم في الحديقة أليس كذلك؟

أطلَّ وجهُ أمي الجميل -ذو الابتسامة ذات الشامة اليمنى- وهي تمشي بلباسِ نومها الأبيض الجميل ذو الأكمام الواسعة:

- صباحُ الخيرِ أمي، صباحُ الخيرِ يا صغيرتي الجميلة، لدي اقتراحٌ أجمل، سنقضي اليوم بطوله خارجًا. بدأت أجواء الأعياد ولدي رغبة كبيرة بالخروج والاستمتاع.

- صباح الخير "ماريا"، كنت أودُ لو تنامين أكثر اليوم.

- أمي، أنتِ تعرفين أن نزول هذه الصغيرة المزعجة على الدرج هو منبهي الخاص، لا أستطيعُ أن أقاوم هذه الطفلة.

أخذت أمي تطوق جدتي بذراعيها من خلف كرسيها وتقبلها، ثم مازحتها كعادتها:

-أوه، يبدو الخبز اليوم لذيذًا، أعتقد أنك تتقدمين في صنعه، استمري.

ابتسمنا جميعًا وبدأت الشمسُ تأخذ في سطوعها بشكلٍ كبير، حتى الزوايا المعتمة في البيت أصبحت واضحة، واستطعتُ أن أرى تفاصيل تشققات الأرض الخشبية، وسطعت الستائرُ البيضاء من الدانتيل الشفاف ببياضها أكثرَ فأكثر، وامتزجت الزهورُ الصفراء والبنفسجية بلونِ شعاعٍ واحدٍ حولها بطريقة ضبابية، تحت أشعة الشمس التي تحمل رذاذًا أبيضًا.

أصوات الملاعق وهي ترتطم بالصحون وأكواب القهوة والحليب بالطاولة الخشبية كلّما ارتشفنا منها وأعدناها إليها، أكملت اللوحة الصباحية في ذاكرتي، ليدور عمري حول نفسه حلقات مفرغة من صباحٍ كهذا، بل يلتف كحلقات جذع

شجرة فأغدو مثله أكبر بعقود من أن أحظى بترف مشاركة أمي صباحها مجددًا، والذي يساوي لدي مساحات الكون من جبال ووديان وبحار وأنهار، كلّها مسطحة في عيني.

بدأت رائحة الخبز والقهوة تفقد حدتها، الروائح تُقتل في الشمس، هذه قناعتي، فحساسيتي للروائح كبيرة وأبني من خلالها حبي ونفوري للأشياء، وحتى الأشخاص؛ لذا فأنا أُحب الشتاء، وكأنه يُجمد كلَّ الروائح ويضعها في زجاجات عطرية فاخرة، فأشتمُ فيها روائح غاب أصحابها، فتلتصق بذاكرتي كما يلتصق المطر بالتراب أول هطوله ويحفر حفرًا صغيرة ويحدث غبارًا غريبًا تستطيع شمَّه أيضًا.

بعدما ارتشفت أمي بقوة ثُمالة كوب قهوتها قالت وهي تلتفت لجدتي وتحاول أن تبتسم وأن تنظر لها بطريقة عميقة بضمِّ حاجبيها قليلًا نحو بعضهما محدثةً اعوجاجَ أطرافِهما، مع ابتسامة تكاد تسحب شامتها اليمين لأعلى قليلًا، وكأنها تقول لها بصمت (لن نتحدث عن شيء أمامها):

- سنستمتع اليوم كثيرًا ، أنا متحمسة.

نهضت من كرسيها باتجاهي وأنهت كلامها بقبلةٍ وبتفقدِ جدائلي في آنٍ واحدٍ ثم صعدت إلى غرفتها، سمعنا صوتَ وقعِ خطواتها ثقيلةً وبطيئةً على الدرج، كأنها تحمل أثقالا، وأستطيعُ الآن أن أجزم أن أفكار عمرها كلّها وما سيحدث كان حملها الذي تصعد بعد حينها. "

وفجأة صرخت:

"أنا سأستعد، لا تتأخرا أيتها الكسولتين"

جدتي.. ابتسامتك التي ظهرت فيها كلّ تجاعيد وجهك حينها لم تكن الأجمل، بل كانت الأوجع على الإطلاق.. تنطبع فيَّ كطابعٍ بريديٍّ للماضي هذا، أذكرها كأنني الآن أجلس أمامك، لكني بت أكبر وأنضج، ولم أكن لأترككما تلعبان كلّ هذه الأدوار المسرحية بالأقنعة الكثيرة ليصيب طرف روحي الحزن.

"الحزن يا جدتي ويا أمي، حتى وإن أصاب طرف الروح فينا قادرٌ على أن يكمل طريقه ليصيبها كلّها، وبامتداده البطيء يكون موجعًا أكثر، ورغم أننا بهذا نغدو أقوياء لكننا أيضًا يابسون، فيصبح كسرنا سهلا."

كان يومًا جميلًا قضيناه بأكمله خارجًا، لا أذكر الكثير من تفاصيلي مع أمي فيه؛ لأن وهج الحياة كان يأخذني كأيِّ طفلة تلعب وتطلب المزيد من المتعة وتريد الحلوى وتتلقى المجاملات دومًا من السيدات عن جدائلها، ويا ليتنا نستطيع أن نختطف من العمر لحظات نتحول فيها إلى أطفال، وتأخذنا الحياة بوهجها ومفاتنها فنمضي أوقات وجعنا غير مبالين، وبلا ذكرى، ومن دون أن ندركها حتى."

ليلتها، بعدما أنهكني التعب من كثرة اللعب طوال اليوم، وأصرت أمي على أن تقوم هي بعمل حمامي المسائي وترتيب جدائلي، أخبرتني أنني جميلةٌ وقويةٌ وأنها ستعتمدُ عليّ في الكثيرِ من الأُمور عندما أكبر، وأن أبي أيضًا يحبني وسيأتي قريبا جدا، وأننا تركنا القدس بسبب مرضها وبسبب الحرب رغم أن القدس جميلة وأنها تشتاق لها حتى لو لم تكن تنتمي إليها، ورأينا ليلتها سوية صورا قديمة كثيرة:

الصورة الأولى لها مع جدي وجدتي، يا لروعةِ جمالِ جدائلها فيها، تسرق البصر من خلال اللون الأبيض والأسود للصورة والذي يحيل باللون الاشقر لهما جمالا كهالة ضوء تطوق وجهها.

وصورة تختصر قدري، كانت لهم أمام فندق يدعى "ريتز- **Reitz** "، في زيارتها مع جدتي وجدي إلى القدس وهناك زارت أيضًا بيت لحم والناصرة فتعلقت بفلسطين، وفي اليومين الأخيرين التقوا بأبي، الذي تعرف عليهم وكان يتقن بعض الكلمات الألمانية بسبب سفره لها للاطلاع على صناعة السيارات ومعرفة أجود أنواع قطع الغيار الخاصة بها هناك، وكلُّ ذلك تابعٌ لمجالِ عمله.

- "كان والدك رجلا قويًا وشهمًا، وساعدنا كثيرًا عندما مررنا بمشكلة صغيرة، كان نحيلا جدًا ويرتدي قميصًا أبيضًا وبنطالًا بُنِيّ اللون واسعُ النهايةِ جدًا، وكان ويضع حزامًا عريضًا، ولديه شعرٌ مجعدٌ كثيف يذكرني دائمًا بالصورة التي تتواجد على أغلفة الأسطوانات المُدمجة للمغنين القدامى، ثم عدنا والتقينا هنا.

لقد بقوا على تواصل حتى أُتيحت لأبي الفرصة لعقد شراكة لقطع غيار السيارات في مدينة فرانكفورت، والتي تبعد قرابة الأربع ساعات عن مدينة دوسيلدورف، حيث زارهم أكثر من مرة وتقرب لأمي وعائلتها ومن ثَمَّ تزوجا ثم ذهبت معه للقدس حيث ولدت أنا في مستشفى يُدعى الهلال، وكانت هناك بداية حياتهم التي لم تكتمل، وهنت أمي فجأةً، وبعد مرورها بأكثر من تشخيص كانت النتيجة المؤلمة ..."سرطان".

عادت بي إلى ألمانيا لتلقي علاجها، على أمل أن تعود إلى صحتها ونعود سويا إلى القدس من جديد، لكن السنين مرت وهي تصارع مرضها.

قالت وهي تشيرُ لمجموعةٍ من الصحونِ الخزفية المزخرفة بألوانٍ وروسوماتٍ جميلةٍ يسودها اللون الأزرق الداكن جدًا كخلفية:

- أخبرتُ والدك في مرة أنني أحبها جدًا ولاحظ اقتنائي لمجموعةٍ منها فأصبح يجلب لي دائمًا منها.

ثم ابتسمت ابتسامتها التي تضم فيها فمها كثيرًا فيغدو صغيرا وتحمر وجنتيها وجبينها معا:

-والدك لا يمتلك القدرة على التعبير والحديث، لكنه يحمل الحب كلّه داخله إنه رجلٌ قوي.

تحدثت معها عن خبز السمسم والكعك الذي لابد أن يحضره لنا أبي معه دومًا، أعتقد أنني تعقلت بالروائح منذ أن كنت صغيرة بسبب أمي، كانت تملك قدرةً كبيرة على التعبير عنها من خلال تفاصيل وجهها وكأنها تشتم الشيء حينها وتأكل الشيء الآن فيسيل لعاب العقل وتغدو مُغرمًا من دون أن تدري، مازلتُ أحبُ ما تحب أمي كأني نسختها الخاصة باختياراتها وذوقها، ومهجنة أيضًا بنسخة أبي الصامتة.

تحدثنا عن لقب الكنعانية الصغيرة التي مهما حاولتْ أن تُبسَّطَه لي كان يبدو مُعقدًا وغريبًا، ولكني كنتُ أعرف أن سبب تلقيبي به هو أنني ولدت في القدس وأنني عنيدة جدًا!

مُذ كنتُ صغيرةً وأنا أنتمي روحانيا بشكل لا يفسر لمكان آخر، ورغم أن طفولتي الأساسية كانت في ألمانيا، إلا أنني كلّما كبرتُ وبدأتُ أعي اسم القدس في أوراقي، كنت أشعر بارتعاشةِ روحٍ جميلة وتميُّزٍ غريب.

تحدثنا عن جدي لأمي بلا سبب وبشكل مكثف وعن أن الأرواح تبقى تراقبنا بالسماءِ وتبتسم لسعادتنا وتسعد أيضًا، وأن الشخص الجميل من الداخل لابد أن يكون في مكانٍ أجمل بالأعلى، فهناك عالم آخر وأشياء جميلة بالتأكيد سوف نعرفها، سألتها:

- هل تعنين أن النجومَ أشخاصٌ ماتوا؟

- ربما، لا نعرف، ولكن حتى لو لم تكن كذلك فما رأيك أن نعتبرها أنا وأنتِ هكذا؟ وحتى للأشخاص البعيدين عنا ولم نرهم منذ مدة، وأن نُسقط عليها أسماء من نحب؟، ربما تُوصلنا بهم عندما نشتاق.

- سأختارُ أكبرَ النجوم، وسأسميها بأسماء كثيرة، وسأرسمها على ورقة حتى لا أنسى من هي، مارأيك أمي؟

- ليت الأمر بهذه البساطة والجمال يا صغيرتي، لكن تذكري دومًا أني أحبك وفخورة بك وأني سأشتاق لك عندما أُصبح نجمةً يومًا.

- وأنا سأصبحُ نجمةً أيضًا بجانبك فوق، ربما هناك أشياء فعلًا جميلة بالأعلى.

ضمتني إلى صدرِها بقوة، ومرَّرت كعادتِها أنفَها من خلال شعري لتشُمَّني بعمق، غفوت في حضنها وكأني أنامُ وسط غيمة تطوقني وأغرق بها، وحلمتُ ليلتها بالنجومِ تتساقطُ كالمطرِ، ويتلاقى الناسُ ويتراقصون تحتها.

استيقظتُ مُتأَخرةً، في العادة أنا أسابق رائحة الخبز والتفاصيل الصغيرة للصباح، هذه المرة وجدتُ السرير بجانبي فارغًا؛ فركضتُ مسرعةً إلى الحمام لكني لم أجد أمي، لا زلتُ أذكر كلّ التفاصيل، وكأن شخصًا يرسمها وأنا فقط أسردها، ونزلتُ بسيمفونيتي المعهودةِ على الدرج الخشبي القديم للأسفل؛ كي أُعلن بصوت أقدامي المزعج عن استيقاظي، تخيلتُ أن أجد أمي وجدتي يقُمن بفعل خيانةٍ صباحية بدوني فتتناولان طعام الفطور وتشربان القهوة، ولكني وجدتُ جدتي فقط ولا رائحة للخبز حتى، كان صباحًا باردًا خاليًا من التفاصيل، عقيمًا مهما استقرَّ في زاوية الذكرى، فلطالما حاول أن ينجب شيئًا مفرحًا لي لكنه لم ولن يفلح:

- صباحُ الخيرِ جدتي، أين أمي؟

قلتُ وحدقة عيني تتسع وتكبر عساها تستطيع أن ترى أمي بأية زاوية حولي.

- صباحُ الخيرِ يا صغيرتي، الآن سنتناول الفطور وبعدها سنستعدُ للذهاب إلى أمك، إنها في المشفى من أجل فحوصاتها.

-لكن لماذا لم تأخذني معها؟

-المهم صحة والدتك الآن، وهذا أمرٌمهمٌ بالنسةِ لها، فاليوم هو الموعدُ الشهري لفحوصاتها ولم تأخذني أيضًا معها، نحن كبيرتان وسنذهب سويًا إليها وستساعديني في شراء حاجياتِ البيت وسيكون لك مفاجأة.

- ما هي؟

- سنشتري البيضَ والألوان، وسنلونه مساءً.

- مع أمي، صحيح؟؟

- الأطباء اليوم سيحددون كلّ شيء، ودكتور "هاري" سيكون موجودًا هناك، إنه طبيبٌ ممتاز، لندعو أن يكونَ كلُّ شيءٍ بخير، وأن نحتفلَ سويا بتلوين البيضِ وهي معنا، وإن لم تستطع فسنلون لها الكثير منه ونأخذه لها غدا في زيارتنا كهدية، ستفرح كثيرًا به أليس كذلك؟ وسنأخذ لأولادِ الدكتور "هاري" أيضًا، ألم يخبرك عن توءمه "أورليا" و"مارك"؟

- "حسنا"، قلتها ولم يظهرَ مني أيُّ تفاعلٍ طبيعيٍّ لمحاولات جدتي بالحديثِ عن كلّ الأشياء التي تلفتني وتفرحني في المبنى الكبير المليئ بالغرف والذي يدعى "مستشفى".

"كطفلة " تسمع عن ألوان وعيد وأطفال آخرين أخبرها الطبيب اللطيف عنهم ورأت في مكتبه صورهم وهي في بالغ فرحها وهي تسأل أمها طوال الطريق عن كيف يكون التوأم؟ وهل وُلدا معًا؟ هل يتشابهان في كلّ شيء؟ ولمَ لا يكون لها أيضًا أخوة؟

فقط أخذتُ أنظر إلى الأرض وأحرك إصبع قدمي على حدود الشق في الأرض الخشبية القديمة وأقول لنفسي:

"أيعقل أن تغيب أمي كثيرًا مثل المرة الماضية؟ كانت ذاهبة ليوم واحد وبقيت عدة أسابيع "

في هذه اللحظات والتي أراها الآن كأني أقفُ أمام المرآة فيظهرَ أمامي وجهُ طفلةٍ تحاولُ أن تفهمَ كلَّ شيء من خلالِ أسئلتها وصمتها الذي يتبعُهُ حديثٌ مع نفسها ببراءة، ناضجة تفكر بمادية الوقت والأشياء وعدِّ الأيام فقط!، اقتربتْ مني جدتي

وحملتني وأجلستني على طرف طاولتها الخشبية ونظرتْ إلى وجهي الذي أصبحَ بين يديها:

- صغيرتي.. ألا تحبين البقاء مع جدتك!؟

- "نعم أحب البقاء، لكن....!

صَمَتُّ قليلًا، ثم قلتُ باندفاع وبصوتٍ عالٍ:

- جدتي، هل سنذهب لأمي فعلا؟"

-اذهبي إلى الأعلى وارتدي ملابسك وتعالي لأُسرِّحَ لك جدائِلك ولنتناول الفطورَ سويا في الحديقة، الربيعُ قد بدأ والعطلةُ.. اتفقنا؟، ونعم سنذهبُ لأمكِ، أعطِني إصبعكِ الصغير....هكذا إذن، هذا وعد.

تشابكتْ أصابعُنا وكان الوعدُ بأن أذهبَ للمكانِ الذي أمقتُه، لكن لمن؟ إنها أمي، وتشابكتْ أيضًا داخلي أشياءٌ كثيرةٌ، كنتُ أرى على النافذة عنكبوتًا تنسجُ يومًا بعد يوم خطوطًا بيضاءَ مُتشابكةً، وفي أول مرة رأيتُها واكتشفتُ وجودها ناديتُ أمي وسألتُها عنها، شرحتْ لي كيف أنَّها تصنعُ هذا كشركٍ لفريستِها. حينها الوقتُ والأفكار أخذت تتشابك داخلي تمامًا كهذه الخيوط في غياب أمي وكأنها تتركني خلفها في زوايةٍ مهجورة.

جلسنا نتناول الفطور، وبدأت جدتي أحاديثها المتكررة كلّما جلسنا تحت هذه الشجرة،:

- كم أحبُ شجرتي -اللوز- والجلوس تحتها، إنها تذكرني بأمك وهي صغيرة، بطفولتها، وبك يا جميلتي.

لكن تنهيدات تَنَفُّسَها تلك المرة لم تكُن طبيعية، كانت ثقيلةً وكنتُ أستطيعُ أن أرى ارتفاعَ صدرِها وانخفاضَه في كلِّ تنفس بشكلٍ واضح، ثم استطردت:
"لكن حساسية الربيع صعبة، يبدو أنني أعاني منها، هيا لنحضر أنفسنا للخروج".
إنني متأكدةٌ كلّما استحضرتُ هذه الذكرى أن روحَها من كانت تعاني حساسية الفقدِ والخوفِ والارتجافِ وتمارسُ لعبةَ الاختباءِ عني، فكلما غبتُ أعرف أنها كانت تجلس في عزاء مع نفسها وتحتمي بالصلوات ألا يصيبنا ما تخاف وأن تعود أمي للبيت وألا تفقدها كما جدي، ومن ثمَّ تلبس قناعَ الابتسامةِ والقوة أمامي وتُطفئ شمعةَ مناجاتها قبل أن أعود.
كابنةِ الستةِ أعوام بدوتُ صغيرةً جدًا حينها في نظر الكثيرين، إلا أنني كبرتُ مقدار وجع أمي، ومحاولات جدتي للاتزان، مبكرًا جدًا أصبحتُ أعي تمامًا ما يحدث، وحتى الاسم الغريب "السرطان" لم يعُدْ يُحدث عند سماعي له أيّ استغراب، فكنت أشرح معناه لزملائي في الصف، عندما كنتُ أسأل عن أمي لماذا لم تحضر لاجتماعات أولياء الأمور وتنوب عنها دومًا جدتي، كان الأمر طبيعيًا بالنسبةِ لهم، هم لم يكونوا على قدرِ وعيٍ كبير بما يعني هذا، كانوا فقط ينقلونه لأهلهم، كعادة الأطفال. ربما أهلهم كانوا يعرفون مقدار وجع هذه الفتاة فقط وربما بسببي أيضًا في لحظات قدروا وجودهم في حياة أولادهم وأحبوهم وشاركوهم لحظاتٍ أكبرَ وأعمق، أو فقط شعروا بالشفقة، الإحساس الذي أمقته ولا أقبله.

الأمر الوحيد الذي كان يشغلني عن كلّ هذا هو كم ستغيبُ أمي هذه المرة في المشفى؛ فأنا لا أحبُ هذا المكان، والطعام فيه ليس طيبَ المذاقِ ويقدم في أشياءٍ بلاستيكية، تذوقتُه مرة وكان خاليًا من كلِّ الروائح، أمي تحب الروائح والطعام اللذيذ، أيّ أنها حتى لا تأكل طعامًا جيدًا هناك، ولا أدري إن كانت جارتُها في الغرفة سيكون عندها أطفال أيضًا وسألعب معهم؟ أم ستكون مُتعبة وفي وقت الزيارة إذا كان زوارها كبارًا في العمر؟ وعلي إذن أن أكتفي بالصمت حين يواسونها وتتحول وجوههم لمسرحٍ لفنِّ الحزنِ أمامي، فأدخله دون تذكرة ولا رغبة.

خرجتُ مع جدتي وسلةَ القش خاصتها التي ترافقها دومًا وستمتلئ بأشياء من كلّ متجر نمر به في طريق ذهابنا إلى أمي، وكلما امتلأت السلة امتلأ داخلي يومًا إضافيًا بغيابِ أمي، وبِعِيدٍ سنقضيه في المشفى، الباص نفسه، والمحطات الأربع نفسُها، كنتُ أعدُّها، أقفُ ممسكةً بشدة بجانب جدتي حين يتوقف الباص حتى لا أسقط بفعل مكابحه القوية، كما هو إحساسي تمامًا عند الاقتراب من محطة النزول بضربةٍ قوية في منتصف الروح عندما أزور هذا المكان. ونمشي في نفسِ الممرِّ الحجري ذي البابِ الزجاجي صاحبِ الرقمِ الأبيضِ "**72**" للمبنى بلافتةٍ زرقاء، و إلى المصعد البُنِّي اللونِ، ثم الضغط على الرقم أربعة من دون طلب جدتي مني، لقد حفظت هذا، ومن ثمَّ نسيرُ إلى اليسار وسط ترحيب الممرضات بي وبجدتي من اللواتي تعودنَ علينا واللاتي حفظتُ وجوههن وكنت أستطيعُ أن ألحظ غياب إحداهن أو حضور أخرى جديدة بسهولة.

أستطيعُ أن أُسجل رقم الباص، المبنى، المصعد، والغرفة كأنه "رقم هاتف" يطلب لي الذكرى ورائحة أمي المختلفة في هذه الغرفة ذات الستائر الرمادية والسرير الذي لا يتسع لي بجانبها، ذو الغطاء الأزرق، -بالمناسبة أنا لا أحب اللون الازرق-، وسماع صوت أنينٍ أحيانا لمريضةٍ بجانبها، فأنا لم أسمع أمي تئنُ بألمها أمامي بتاتًا رغم أنها أحيانا كانت تبدو بأسوأ حالاتها، فتطلب منا فقط أن نخرج كي تنام لشعورها بالنعاس فجأة، والآن أدركتُ أنها كانت تفعلُ ذلك حتى لا نراها وهي تتألم.

كانت النافذةُ كبيرةً جدًا في الغرفة، تطلُّ على مباني أخرى فيها غرفٌ كثيرةٌ تحمل ذاتَ لون الستائر، وفي الأسفل كان الناس يتحركون مع أشخاص يعانون الكسور أو إصابات في العيون فيقومون بلف عين أحدهم بشاش أبيض أو يتحركون بجانب قائمة حديدية لها عجلات ويتعلق بها كيسٌ أبيضٌ فيه سائلٌ، كانت هذه النافذة المنفذُ الوحيدُ في الغرفة التي تريني الأشياء مكشوفة وغير مريحة ومريضة، ولعل هذا السبب الذي لا أحب بسببه الشمس ولا الصيف وأحيانا كثيرة كثيرة الربيع.

ولربما أيضًا هذا من أسباب أنني سيئةٌ جدًا بتقبل أيّ شيء لا يشبهني في مراحل من حياتي، وأحيانًا كثيرة أمارس الأُمور بشكل متطرف ومحدود. أعرف نفسي وعيوبها وما حاولت تغييره فيها وما لم يتغير!، لكنها أنا وهذا ما مررت به والأشياء لا تُسأل عن زواياها الحادة، يُسأل عن جوهرها والمراحل التي مرت حتى صُقلت وأصبحت في شكلها النهائي، وقد كانت مراحل صقلي بمشرط الفقد

والنضوج قبل موعده وأعرف أنه: "لربما أصابت زواياي الحادة أحدًا ولكني متأكدةٌ أن جوهري أصاب الأكثر".

مرَّ الأسبوع هكذا نستيقظ، نمرُّ بالمتاجر، نملأ السلة، ونفس الطريق والانتظار، المحطات والوجوه، وغرفة أمي ووجها الذي بدأ يذبل وشعرها الذي بدأ يتساقط بشكلٍ كبير، فكانت تخبئُهُ بقطعةِ قماشٍ تشبه تمامًا جمال عينيها، كأنها زيتُ زيتونٍ بكر، ولكن كلّما نظرتُ فيهما أجدهما لم تفقدا بريقَهما يومًا، ولم تفقد أمي كذلك أحاديثَها اللطيفة، أو صوتَها الخافتِ وضحكاتها، كان الجميع يحبها، والممرضات لديهن علاقة قوية معها ودكتور "هاري" كان يقضي معنا وقتا لا بأس به؛ فيرفع معنوياتها بشكلٍ كبير، كان يتعامل مع أمي بطريقة خاصة، ولربما كنتُ أُذكِّرُه بأطفالهِ فقد كان حديث الأبوة في كلماته جليًا تجاهي، كان يخرج لي أحيانًا من جيبه الأبيض الكبير قطعةَ حلوى، وكنت في أوقات كثيرة أعتبرها جائزةً لي على صبري وصمتي وأنا جالسة على حافة النافذة أنتظر وأراقب بجانب "شبح" يدعى المرض.

الفصل الثاني

جدائل من زهر اللّوز

لي أشخاصٌ، كلٌّ مِنُهم يَسكُنُ شِقًّا مِن رُوحي
رغم أن منهم من كَانوا أكبر من مُجرد شِق!
فَأخذوا قِطعةً من طَرف الروح ورحلوا

دوسيلدورف، DÜSSELDORF - ألمانيا

في اليومِ قبل الأخير، وبعد زيارتي لها ورؤيتي لسقوط شعرها بالكامل، ومع اقتناعي أن أمي غابت كثيرًا وستغيب أكثر، وأنها مُتعبةٌ؛ فبريقُ عينيها الغائرتين قد خبا، ومع كثرة أسئلتي نفسها، وتكرار نفسِ الإجاباتِ من جدتي ونفسِ الأحاديثِ اليومية مع أبي على الهاتف بكلمات بسيطة في غياب أمي وترجمتها، مع كلّ هذا الروتين للانتظار والترقب لإجابة مختلقة وحديث جديد، زارني طيف توحد. وكانت البؤرةُ الأكثرُ احتراقا في ذاكرتي هي عندما نهضتُ صباحًا، وكانت الشمس مختفية، أصبحت جدائلي ثقيلة وتشبه جدائل أمي في صورتها القديمة أكثر وأكثر، تسللتُ إلى مطبخِ جدتي، أعرف أين تخبئ المقص الكبير عني، حيث تضعه بجانب كتب الطبخِ خاصَّتها، حتى لا أؤذي نفسي به، دخلت إلى الحمام وأوصدت بابه، ثم وقفت على كرسيّ البلاستيكي الأخضر والأصفر ووصلت إلى المرآة، تنفستُ عميقًا ثم أغمضت عينيّ بقوةٍ وفتحتهما وقلت: "إيلياء"، هيا.. أنتِ قوية لتفعليها، هي هديتها".

قصصتُ جدائلي غيرَ المُرتَّبة رغم أنني حاولتُ أن أُرتبها بترطيبها ومسحها بالماء، ومن ثمَّ نظرتُ لنفسي في المرآةِ بشعرٍ بالكاد يصل إلى كتفيّ، فوجدت نفسي جميلةً ووجدت وجه أمي أجمل وأنا أتخيل الجدائل تحيطه كما في صورها.

سبب قراري هذا، أنني رأيتهم يصنعون باروكة من الشعر في سهرة تلفاز أمس فتبدو النساء فيها جميلة، فقررتُ قبل نومي أن أفعل ذلك لتكون هدية العيد

لأمي، لقد كنتُ أضحكُ تحت شرشف سيري وأفرُكُ يديّ في حماسة منتظرةً طلوعَ الصبح لأقومَ بهذا، نهضتُ أكثرَ من مرةٍ أستطلعُ هل حل الصباح أم لا، وأقول لنفسي ببراءة ناضجة "إنني سأكبر كلّما شربت الحليب وأكلت الخبز والخضار كما تقول جدتي، وشعري أيضًا سينمو وتعود لي جدائلي"، وأمسكتهما فضممتُهما لبعضِهما ولصدري كوداعٍ أخيرٍ ثُم نمت.

كانت هناك بقايا شعر كثيرة تغطي حوض غسيل اليدين والأرض، وتتبع طريقي إلى غرفة النوم، بحثتُ عن صندوقٍ خشبيٍّ جميلٍ كانت أمي أحضرته معها من القدس وقالت إنه من خشب شجر الزيتون وأنها تحبه، فوضعت الجدائل فيه وخرجت لشجرة اللوز فلملمت الكثير من زهر اللوز الذي كان يرقصُ صباحًا ويمطر الأرض ثم وضعته بجانب الجدائل، جدائلي وزهر اللوز يشبهان أمي كثيرًا ، كنت فخورة بنفسي، أتربعُ على سريري وأراقب الصندوق، أفتحه وأغلقه كل حين، وهكذا، حتى أتاكد في كلّ مرة أنه سيبدو جميلًا للغاية عندما تفتحه أمي، وسترتفع شامتها اليمنى كثيرًا لأعلى وهي تبتسم، وستقول لي" أنتِ قوية وجميلة"، لكن....

-"إيلياء"!، ماذا فعلتي.

كانت صرخة جدتي قوية جدًا، حتى أنني لم ألتفت لها حتى استدارات أمامي وهي تمسك بالسريرِ الحديديِّ ذي الأعمدةِ البيضاء الذي بدأ يرتجف فعلًا بسببها ويصدر صريرا يقشعر جسدي له كلّما تذكرته، فمازال بأذني هو وكل تفاصيل المشهد بحذافيره. أعتقد أنها رأت حينها طفلة بشعرٍ تظهرُ على أطرافهِ واضحةً

آثارُ القصِّ وعينين متفتحين بقوة ترقبان ردة فعلها وبيدها صندوق خشبي تشدُّ عليه بقوة بكلتا يديها حتى لتظهرُ عروقَها الزرقاء.

مرت دقيقة، بل أكثر وأنا أنظر إليها وتنظر إليّ وتتحرك شفتاها قليلًا عن بعضها وتعودان تنطبقان على بعضهما وتصمت، وفجأة قلت:

-افتحيه جدتي

مررتُ الصندوق لأعلى من مستوى جسدي باتجاهها، وأنا أضمُّ حاجبيّ إلى بعضهما وأرفعُ ناظريّ إلى أعلى ورأسي مطأطأة لأسفل، فمرت يداها الكبيرتان وقتها والمطبوعة في جدار الروح كوشم، وفتحت الصندوق، كانت الجدائل المبتلة والورد الذي ابتلَّ بسببهما أكثر امتزاجا ببعضهما.

-لماذا....؟!

قلت وابتسامة عريضة تكلل جبيني، وأنا أقف تدريجيا على السرير لأصل إلى مستوى طولها:

- إنها هدية العيد لأمي، الآن سيصبح لها جدائل جميلة كما كانت وهي صغيرة، لقد شاهدنا هذا بالتلفاز البارحة، لا تقلقي سيناسبها وستكون سعيدة، وأنا أصلا لم أدخر المال الكثير لأجلب لها شيئا تحبه.

أسأل نفسي لماذا أنا عندما أذكر هذا بعد كلّ هذه السنين مهما ابتسمت ستسقط الآن دمعة من طرف عيني اليسرى التي ما زلت تمتلك خاصية الدموع، وجدتي حينها لم تدمع، لم تتحرك تعابير وجهها بتاتا ولم تصرخ.. لم تفعل أيّ شيء، لم

تتحدث حتى، بدت تجاعيدها أعمق وعروق يديها تشبه امتداد جذورٍ لصندق الخشب الذي بين يديها فقط.

انسحبت جدتي ببطء خارج الغرفة، أما أنا فعُدتُ لأجلس على سريري الملتف غطائه حول قدميّ وأخذتُ أتكوّرُ على نفسي وأراقب شجرة اللوز المطلة على نافذة الغرفة المفتوحة درفتيها، كانت الشجرة ما زالت تمطر ورودها التي قاربت على النفاد، فكرت وقلتُ في نفسي: ما الخطأ الذي ارتكبته؟، هل لن يناسب شعري أمي؟، أم أنه لن ينمو مجددا؟، ولماذا لن تفرح به كما أنا؟، هل سأتعرض للعقاب ولن أذهب إلى أمي غدا؟، وهل كان برنامج التلفاز خياليا؟، لكن كيف هذا، لقد قالت لي جدتي أثناء مشاهدته:

" يبدو أنني أحتاج إلى هذا لأستعيد شبابي "، أو أنها غضبت من الفوضى التي أحدثتها، كنت كدوامة صغيرة أفكر في هذا العالم الكبير.

نهضتُ من سريري واتجهتُ إلى الحمام وبدأتُ محاولة تنظيف بقايا ما فعلت، كان الشعر ملتصقًا في كلّ مكان، وخطوات قدميّ تنطبعان على أرض الحمام المبللة، حاولت أيضًا أن أُرتب شعري وارتديت ملابسي ووضعت مشبكا على طرفه كفراشة، لعل جدتي تراني جميلة وينتهي أمر العقاب بابتسامة منها.

نزلت من على الدرج الخشبي ببطء، لم يكن لوقع أقدامي لحظتها موسيقى الضجة الخاصة بي، هاتف المنزل برنينه كان يصنع موسيقى المكان، رن كثيرًا قبل أن ترفع جدتي السماعة -سمعتُ أخيرا صوتها-:

-"الو....، نعم....، الوضع....، حسنا حسنا أنا في الطريق. "

وصوتُ إقفال السماعة.

احتاجت عشر ثوان لترفعها وتدير قرص الهاتف، يبدو أنها أخطأت في الرقم فعادت وأغلقت الهاتف ثم كررت حركة القرص ببطءٍ وهي تنظر إلى دفتر الهاتف الأسود الصغير خاصتها:.

-" مرحبا آدم هل تستطيع أن تبكر رحلتك إلى هنا؟ الوضعُ ليس بجيد و"إيلياء" تحتاجك وأنا...، وارتجف صوتها... "أنا متعبة. ".

الستائر التي طارت من خلال الهواء الذي تدفق فجأة كأنه يختلس النظر لما حدث، كانت الخلفية لجدتي التي تمسك السماعة وتحدق فيّ وقد بدأت عيناها تمتلئ بالدموع لتتحولا لسماءٍ تنعكس على البحر.

عندها فتحت ذراعيها ولفتني بينهما:

- جدتي لا تغضبي أنا أبدو جميلة، انظري وأستطيعُ الآن أن أسرِّح شعري لوحدي.

هزت برأسها وأخذتني لحضنها أكثر وضمتني بشدة

– "سيكون كلّ شيء على ما يرام يا صغيرتي "

كلُّ شيء بدأ بعد هذا سريعًا جدًا كفلاش كاميرا، وكأن ساعة الوقت أيضًا داخلي تحرك فيها عقرب الثواني بسرعة كبيرة، لم نركب الباص وجدتي لم تأخذ سلتها، طلبت سيارة أجرة أوصلتنا للممر الرئيسي للمشفى الذي لم أره من قبل، فكان كبيرًا جدًا لي ومليئًا بالناس، انحدرنا من خلال درج صغير إلى الطريق الحجري للمبنى الذي أعرفه، وإلى المصعد ذاته ضغطنا رقم أربعة ووصلنا إلى غرفة أمي في الجهة الأخرى، كانت في قسم العناية المركزة.

كان المكان أشبه بممرٍ ضيقٍ وغرفةٍ نطلُّ منها على أمي من خلال الزجاج، كبرت لحظتها كثيرًا وأنا أراقب خطا متعرجًا على جهاز يشبه التلفاز الصغير ببيت الدمى خاصتي، والذي حصلتُ عليه من أمي في عيدي ميلادي الفائت في أغسطس، أثناء تساقط بقايا من شعري، فمازالت تتناثر من الأطراف على قميصي الأبيض، لم تستطع أمي أن تراني، كنت سأقبل حتى أن توبخني لكن أن تعرفني، أن تتحدث، وأن تخرج من هذه الغرفة المعتمة وتعدل لي مشبك شعري الذي انزلق بين خصل شعري اليتيمة من يديها.

كنت أعرف أن أمرًا سيئًا يحدث، لم يكن نفس المكان ولا الممرضات وكانت أمي وحيدةً هناك في غرفة لا يوجد معها جارة أرى فيها أن في هذا العالم من يعاني مثل أمي وأنا.. كما في غرفتها القديمة، " فالتساوي في الوجع أحيانا مسكن جيد مؤقت لنا ". جلسنا في الممر، كنت الطفلة الأكثر هدوءًا في العالم، لم أتكلم ولم أسأل حتى، فقط كانت خيوط العنكبوت تنسج أكثر وأكثر داخلي ويلتصق بها غبار الانتظار. كنتُ أراقب وجه جدتي ويدها التي تعتصر منديلًا أبيضًا داخلهما، هُيئ لي وقتها أن الأشياء كانت مزدوجة، وشعرت بأن الأشخاص يتحركون وكأنهم ظلال، وصوت الأسرَّة الذي يصدر صريرا حديديا كلّما ارتطم بقوة بالأرض أثناء النقل كانت كموسيقى تصويرية تذكرني بصرير سريري صباحا وبقشعريرة تنتشر داخلي.

رائحةُ الجو الغريبة التي لا تشبه رائحةَ صباحات بيتنا، ولا حتى غرفة أمي السابقة هنا، واللون الأبيض والأخضر المغطي للأشياء التي تتحرك حولي، ورنين الهواتف

التي تخرج من جيوب الرداء الأبيض الأمامية للأطباء والممرضين، كلّ هذا سُجل في ذاكرتي كشريط فيديو يعمل بربع جودته وتظهر فيه الملامح تتحرك كالظلال.
عدنا للبيت، أخذت حمامي وحدي ولبستُ ملابس النوم وسرحتُ شعري الذي أصبح سهلا، الشيء الوحيد الذي كان سهلا حينها فقط، جلست بجانب جدتي في سريرها:

-ستعود أمي، صحيح، أنا واثقة، ربما هي تحتاج أن تنام كثيرًا وترتاح.

ابتسمت تجاعيدها وتنهدت:

- في النهاية سترتاح لا تقلقي، أُمك كالملاك الأبيض والجنيات الجميلة الطيبة في قصصك.

- لا، أمي نجمة في السماء كبيرةٌ ولامعةٌ جدًا، تحدثنا مرة عن هذا وقالت لي أنها تشتاق لي دومًا وتراقبني حتى وهي غائبة من خلال نجمتها، هل أستطيعُ أن أنام بجانبك اليوم؟!

"كانت راحتها تشبه شجرة اللوز عندما نجلس تحتها، وكانت دافئة جدًا جدا.
فتحت لي زاوية شرشفها.

في الخامسة صباحا رنَّ جرس البيت، فتحتُ نصف عينٍ فرأيت أقدام جدتي تتحرك خارج الغرفة باتجاه الباب، وظهر ضوءُ الممر كشعاعٍ على الأرض، وما إن أغمضت عيني مرة أخرى حتى سمعت جدتي تصيح:

- أهلا آدم، لقد جئت بسرعة الحمدلله

إنه أبي، أشعلتُ ضوء المصباح بجانبي، وتذكرت شعري، اتجهت لتسريحة جدتي فسرحته سريعا ليراني جميلة، ثم ركضتُ إليه، منذ أن وُلدتُ لمْ أحظى بحضن من أبي كالذي حظيت به حينها، كان حنونًا دومًا ويزورني ويبعث إليّ بالكثير من البطاقات والمعايدات والهدايا والرسائل الكتابية بالعربية والألمانية، لكني اشتقتُ لأمي وأصبحت كبيرةً في الأيام الماضية، " فكان حضنه عيدا من غير موعد".

قرابة الساعة السابعة بعد أن جلس أبي وجدتي لساعة كاملة يتحدثان على طاولتها الخشبية ويشربان القهوة، وطلبا مني أن أصعد إلى الغرفة وأنتظرهما، فتركتهما. . أوجعتني أطراف أصابع قدمي وأنا أحاول النزول عن الدرج من دون أن يسمعا مني شيئًا، والنظر من ثقب الباب الأطول مني، كأنني راقصة باليه في أول دروسها وتعاني تقرح قدميها في محاولة أن تتعلم، وأنا في محاولة أن افهم!. ورغم هذا كلّه لم أسمع إلا القليل جدًا من الكلام، لم يكن واضحًا بسبب محاولات تواصلهما بلغة مفهومة بينهما، وبعدما مرَّ الوقتُ وتنملت أقدامي صعدت مجددًا لغرفتي وفتحت الصندوق مرارًا وتكرارًا وأنا أنظر إليه من دون أيّة ردة فعل، فقط أفتحه وأغلقه.

صعدت جدتي، وتجهزنا للمغادرة بسيارة أبي التي أحضرها من مكتب بالمطار، على كلّ حال الأمر لم يكن صعبا على تاجر سيارات وشخص عملي جدًا كأبي. أُخرج رأسي من الفجوة بين الكرسيين الأماميين بين أبي وجدتي، وتخيلت فرحة أمي بقدومنا كعائلة، رغم صمتهما طوال الطريق.

توجهنا لمدخل المشفى وأبي يمسك يدي بقوة ويتبع جدتي، وبعد حديثٍ طويل مع الطبيب "هاري" باللغة الانجليزية رأيت يده تربت على كتف أبي والثانية تغلق الاتصالات المتكررة له على هاتف العمل، استمر يتحدث وينظر إلى وجهه وأبي يهز برأسه فقط.

ارتدى أبي لباسًا أخضرًا وغطى رأسه ووجهه فلم يظهر منه سوى نظَّارته الطبية واكتناز الفجوة بين حاجبيه بالشعر. بعدما زار أمي وخرج وركضتُ إليه، قبَّلني وضمني، وعندما نظرتُ إليه، كانت نظَّارته ممتلئةً بالضباب، أخرجت المنديل الذي تضعه دومًا جدتي في جيبي وأعطته إياه، لم يكن ضبابا ولا بخارًا، كانت دموعا، تحولت عينا أبي لأرضٍ عطشى فابتلعت مطر الدموع.

عقرب الساعة ذاته ما زال يتحرك بسرعة داخلي، لكنه بات يتوقف أحيانا ويتحرك بشكلٍ اهتزازي موجع، للخلف تارة وللأمام تارةً أخرى، ثم يعود يتحرك ثم يقف، ويهتز وتهتز روحي الصغيرة التي تشبه جدائلي المبتلة.

حركة كثيرة وصوتٌ قد بدأ يخرج من غرفة أمي، ركضت مجموعة إلى غرفتها، أبي لم ينتظر، رأيته يطلب المصعد ينزل إلى أسفل، لففتُ جسدي واتكأتُ بركبتيّ على الكرسي ونظرت من خلال النافذة فرأيته يخرج، ويجلس على الكرسي تحت شجرة، يضع رأسه بين يديه، بعدما وضع نظَّارته بجانبه، لحظتها توقف الوقت داخلي وتجمدت فعلا كقطرة ماء وحيدة ويتيمة على زجاج نافذة.

ماتت أمي، ولم ترَ الجدائل ولم أحظَ إلا بقبلة الوداع في كنيسةٍ بين الشموع، وجدتي كبرت كثيرًا وباتت التجاعيد ممرات، وحول فمها سلاسل من الصمت منذ

اليوم الذي كان، أمسكت بيدي وخرجنا من مقبرة أمي، أما أبي الذي بكى والتي كانت أول مرة لي أرى فيها وجهه يمتلأ بالماء، وأنفه الذي أصبح لونه أحمرًا، وكانت صلاته مختلفة عن كلّ الذين في الكنسية ويمسك كتابًا مختلفًا ويمسح على وجهه وعلى قبرها، فقلدته وأصبحت أتعلق بمعطفه كطفلةٍ ضائعةٍ لا تعرفُ المشي ولا الوجهات، وترى العالم الكبير لأول مرة وما تحت التراب.

تذكرتُ أمي عندما قالت أنه لا يعبر لكنه من الداخل يختزن الحب، أو أنا كما استنتجت لاحقًا مع نفسي بأن داخله بركانًا خامدًا، وكلما أحبَّ وحاول أن يعبر ظهر بعضٌ من دخانه نشتمه، أو ضبابٌ كالذي رأيته في نظّارته.

وأنا كبرت أيضًا وأصبحت صامتة وتعابير وجهي لئيمة جدًا، كنتُ أنفر من أيّ شخص يقترب مني، وأراقب جدتي تجلس أغلب الوقت على أريكتها أمام النافذة المكللة بإطلالة شجرة اللوز التي اختفت معظم أزهارها من الأرض، وتكتفي أن تمسح على شعري وأنا أضع رأسي في الفجوة المتكونة في فستانها الأسود بسببه وأنا في حضنها.

حضرت مع جدتي حقائبي وودعتها بكثير من الأحضان وشممتُ رائحة البيت والصباح غير المكتمل واللوز فيها، وسافرتُ مع أبي وتركتها، أعرف أن الذي ودعته حينها لم يكن جدتي، الفقد كان من يودعني وليس هي، رأيتها ضعيفة على غير عادتها، ورائحة الخبز غابت من بيتها واختفت القهوة والطاولة أصبحت فارغة من أصواتنا والورود في وسطها لم تُغيَّر من مدة حتى ذبلت، لم تعد هناك من تصنع الخبز والحلوى وتنتظر أن تسمع اطراءاتنا لها لتبتسم ابتسامتها

الخجولة، وتتحمل مزاح أمي، هذه هي تفاصيل جدتي التي كانت بسببها في الصباح تستيسقظ مبكرا وتصافح الصباح قبلنا.

هذه التفاصيل المسجلة في تلافيف دماغي لم أمارسها يومًا إلا مع نفسي، ولا أكتبها الآن بفعل الدراما وعرض الحزن والاستعطاف أبدًا، أشخاصٌ محدودون أو تقريبًا شخصٌ واحدٌ من استطعتُ أن أُشاركه كلّ هذه اللحظات وتحدثت أمامه عاريةً من أيّ إحساس بالتردد أو الشفقة.

لكني لم أنساها يومًا واحدًا، وكنت أواجه نفسي دائمًا بها، لم أقتنع يومًا بأن عليّ أن أُمارس عملية فصلٍ للفص الجبهي من دماغي، حتى أتخلص من كلّ عثراتي النفسية وما ترتب عليها.

أؤمن أني بهذا كلّه تكونت وخلال محاولاتي للبقاء والقوة، كنت أمارس تدريبا قاسيا للاتزان، "كنت أتوازن كأني أقف على حدٍ فاصلٍ بين الماضي والمستقبل، وأحتاجُ له كيلا أسقط ".

وهكذا هو الأمر الطبيعي فجميعنا تعرضنا لعثرات كبيرة في حياتنا وسقطنا كثيرًا تمامًا كالطفل الذي يحاول أن يتعلم المشي، سيسقط مرة واثنتين وعشرة ومائة ولكن بفطرته سيحاول النهوض وأن يمشي مجددًا رغم أنه قد جرح قدمه، أو ارتطم رأسه فأوجعها، أو كسر لعبته التي كان يحملها بيده.

وحتى الذين اعتقدوا أن باستئصالهم الذكرى سينجون، لم يفلحوا ولو عاشوا بهذا الوهم، "سيتقابلون يومًا مع الذكرى وسيخرون ضعفاء ويتعرفون عليها مجددا وربما تسحقهم".

يذكرني هذا تمامًا بالخرافة القديمة أن المرضى النفسيين هم أشخاص يعانون من أرواح شريرة تسكنهم، وأن الذي يشتكي من ألم نفسي أو اكتئاب سيتحول مباشرة إلى المصحات النفسية التي كانت البيئة المجهزة بالكامل أن تنقل أوجاع النفس بين النزلاء تمام كعدوى الانفلونزا، وأن تقتل أرواحهم وأجسادهم بمحاولات الأطباء بالتخلص منهم وتحوليهم إلى أشخاص كالأموات دون أن يحدثوا ضررًا لغيرهم، أو يفسدوا اتزان العالم النموذجي بدونهم -برأيهم هم- إلى أن يموتوا جسديًا تدريجيا وينتهي أمرهم.

الأمر لم يتوقف عند هذا الحد، فقد وصل للمثال المتزن من عالمهم للطبيب البرتغالي "مونز" الذي كان همه الوصول لجائزة نوبل، أي هدف شخصي بحت، من خلال اعتماده على نظرية قديمة أن التصرفات النفسية والتفاعل للشخص يتحكم فيه الفص الجبهي من الدماغ، وبالتالي قرر ثقب عظام الجمجمة، من جهتين متقابلتين، وقام بفصل الأوعية والوصلات العصبية بين هذا الجزء وباقي الدماغ ككل، قرابة خمسون ألف مريض تعرضوا لهذه العملية القاتلة وتدهورت حالتهم ومصيرهم بات واضحًا، الطبيب كان سياسيًا ويبدو لي أيضًا أن داء السياسة يستطيع أن يحول الأشخاص لمهووسين في الأغلب، ويعتبرون أنفسهم منزلين ليصححوا الشعوب من خلال فقط أن يقطعوا وصلاتهم ويحولوهم إلى أشخاص تابعين لتحقيق جائزة، لا أدري ما دخل السياسة الآن، ولكني أمقتها!، ولم يتوقف الأمر عند هذا الشخص، فقد قرر طبيب آخر أن يكون ألطف قليلًا مع المرضى ويخترع طريقته بعمل نفس العملية ولكن من خلال مسمار

ومطرقة!! والتخدير بوساطة الصعقات الكهربائية، فسيصل إلى الجزء ويقوم بفصله. هكذا كانت رؤية الأُمور وقتها ولم يكن الأمر حكرا عن الشريحة غير الواعية أو الفقيرة أو التي تحتاج لفرصة بها بأن تكون خاضعة لتجربة، الأمر وصل لما يفترض أن يكونوا وقتها من أرقى العائلات، وكانت إحدى المريضات هي أخت "الرئيس جون كينيدي"، التي وجد أهلها أن تصرفاتها لا تليق بهم وبمركزهم وأنها ليست طبيعية، فقرروا إجراء العقلية لها التي كان نتاجها فتاة تعيش بعمر لا يتعدى السنتين عقليا، لم يكن وجودها بهذه العائلة نعمة كما نعتقد، بل كان النقمة والحكم بالموت مع وقف تنفيذ الحياة. "يا ليتنا نستطيع من خلال المنصب، المال، الشهادات والأشكال أن نحدد الاشخاص لكان الأمر سهلا والخيبات أقل وصدمتنا غباء وليست اكتشاف قناع "

الفكرة بكل هذا تدور بأن نقوم بقطع ما قبل عمَّا بعد، وهذا الأمر قطعا ليس بصحيح، فالأمر يتعلق بنا، أن نتعلم كيف نصبح أقوى ونداوي أنفسنا بأنفسنا، لن يكون لديك طبيب أفضل من نفسك، وبهذا أنا واجهت وجعي وعيوبي وتصرفاتي وحاولت ألا ألعب دور الضحية المسكينة، وألا أقبل أن أُركن في هذه الخانة خصوصًا في ظل ما مررت به بعد وفاة أمي وتغير حياتي بشكل جذري عدة مرات.

أعرف أني فقدت وأنا لا أُزايد على قوتي، ففقدي كان عظيمًا، ولكني تعلمت أننا نفقد ونُعوض، وأن الحياة بشكل ما في زاوية غير واضحة بسبب انحسار الرؤية لدينا أو لهجراننا لها، يختبئ فيها لنا الكثير من النعم والكثير لنخوضه في "رحلة

الأنا " الخاصة بكل شخص فينا، حتى أجسادنا تستطيع أن تعوض فقدها من خلال الخلايا الجذعية، ولكن الأمر واحد في كليهما، إنه محدود، أيّ أن الحياة لا تعطي الكثير من الفرص فانتهزها ولا تفوتها!

ففي حياتي الأمـــر لم يَكن مَحـض صُدفة ولا ضـــربة حَـــظ أصابت نقطة الهدف ، الأمر كان يحتاج الكثير والكثير من التَـــخلي ! أن تتخلى عن كل الزوائد التي التصقت بك بلا فائدة مع كل شخص وموقف مَـر فيك ومنكَ ، التخلي أصعب أنواع الوعي الذي تدرجت سلم الحياة حتى وصلته.

حينها سَتتخلى عن الإجابة عن الكثير من الأسئلة ، عن العلاقات التي لو ضربت بقبضة يدك طاولة واقعك سَـتتناثر فقط كالغبار حولك .

سَتتخلى عن الوقت المبذول الذي ترتب فيه حَـقيبة سفرك فأشيائك بدت واضحة ومعروفة لك ولا تريحك إلا هي وأنا حزمت حقائب كثيرة ، والتصق بي الكثير ونفضت مني الأكثر.

الفصل الثالث

مقدسية الروح والمولد

يقول غسان كنفاني:

لماذا يعشق أغلب الكتاب باريس؟

هذا لأنهم لم يعيشوا يومًا بحيفا

وأقول

فكيف لو عاشوا يومًا في القدس وكانوا

مقدسيي الروح والمولد

ومروا بحيفا كثيرًا ؟

القدس، فلسطين المحتلة

القدس لم تكن مكانًا غريبًا عني، كنت أشعر دومًا كما قلت أنني أنتمي لمكان آخر، كنت منها ولها، الحجارة المثقلة بالحزن، والممرات الصغيرة الضيقة المملوءة بالأطفال والكتابات الملونة، رائحة السمسم والزعتر التي تغتال حواس الشم وتنافس أيّ شيء حولك و التي كانت تعبُرُ المسافات مع أبي لي ولأُمي، أصواتُ الباعة وكلّ هذه الأُمور لم تكن مشكلة لمقدسية المولد والروح.

خلال رحلتنا لها، كان أبي صامتا، يسألني ثلاثة أسئلة فقط: هل أريد أن آكل؟ أنام؟ أو أن أدخل إلى الحمام؟. على كلّ حال كان شريط الفيديو يعمل بجودة سيئة خلالها وأعتقد حينها كانت جودته لا تتعدى واحدًا بالمئة؛ لا أذكر الكثير غير أنني نمت طوال رحلة الطيران ونظرت من نافذة الطائرة لمنظر جميل جدا.. "إنها القدس، رغم أن جناح الطائرة كان يخفي جزءًا منها، تمامًا كما اكتشفت بمرور الوقت أنها على الحقيقة.. هناك من يخفي أجزاء منها!"

وصلنا إلى مطار يدعى "بن غوريون"، الساعة قاربت التاسعة صباحًا، دخلنا من ممر كراج صغير إلى سيارة اتضح لي فورا أنها لأبي حيث أن صورتي كانت معلقة بميدالية تترنح أسفل المرآة الأمامية، وخلال الحواجز الكثيرة والشوارع المليئة بالكثير من الجنود، -"كان هذا إدراكي الأول لمعنى الحرب، وكانت صورته الأجمل وقتها ولم أدرِ أن هناك ما هو أكبر "!

كان أسفل ذقني يتكئُ على طرف الباب من الداخل وشعري يطير وأنا أستنشق هوائا لا يشبه أيّ هواء، كأن روحي المبتلة بدأت تتنفس، أو ربما كما أرى الآن أنني سمكة مهما اختلفت المياه والأحواض الجميلة التي يمكن أن أكون فيها لكن البحر يبقى الأجمل بالنسبة إليّ ويبقى أصلي وإن كان خطرا!

وصلت السيارة لبوابة كبيرة خضراء اللون تتخللها نقاط بُنِّية داكنة من الصدأ وبقايا نبات تتسلقها، بين سور حجري أبيض يحوي صخور بُنِّية فاتحة متفرقة كأنها كدمات فيه، نزل أبي من السيارة ونظر إلى فوق برهةً وأنا أراقبه ولا أستطيعُ وأنا داخل السيارة أن أرى ما الذي ينظر إليه، لم أكتشف بعد عالمي هذا! ومن ثمَّ مشى إلى جهتي من الجهة الأمامية للسيارة وفتح الباب، مرر كلّتا يديه على جانبي شعري وقبلني من منتصف جبهتي وأكمل مرتين ثلاثة على شعري، كأن يديه تحولتا لمشط لشعري الذي بقيت جدائله وحيدة في صندوق كما أمي هناك في نصف وطن تركته وأحبه!

حملني ومن ثم عاد وجلس مكاني ووضعني في حضنه، رفع نظَّارته وضم حاجبيه سريعا وبسطهما، هذه حركته الدائمة عندما يصحح وضعهما، وقال لي بلغة ألمانية ركيكة:

-"جدك وعمك وأولاده وعمتك في انتظارك، ستكونين سعيدة ولكن ستحتاجين لوقت كي تتعودي". صمتَ قليلًا وأكمل وعيناه تجولان تبحثان عن الكلمات تحت نظَّارته وهو يحرك يديه ببطءٍ شديد -كعادته-:

"اسمعيني، ألسنا نحتاج أحيانا لوقت طويل لنستطيع بناء لعبة الليغو بشكل صحيح؟ أتذكرين عندما كنت أحضرها لك معي وأنتِ صغيرة؟، اعتبري الأمر كذلك، بالنهاية ستكونين ماهرة كما أنت الآن فيها ولن تحتاجي لمساعدتي في بنائها، ستتعودين على كلّ شيء هنا مع الوقت، وسيصبح كلّ شيء أفضل

- لكن...!

وصمتُّ وكأنني ما عدت أجيد اللغة التي أتحدثها.

-ماذا؟ قولي!

- جدتي!

- أعرف جيدًا تعلقكما ببعض ستزورينها كلّ عام، لا تقلقي جدتك طلبت هذا ولن أرفض.

ثم أمسك يدي بقوة ومشينا باتجاه البوابة، سمعت صوت أقدام قوية سريعة جدًا تأتي باتجاهنا، ثم فتح الباب طفل ذو بشرة قمحية وقال "عمي أهلا "، انتظر قليلًا وردد اسمي بصوت خافت بينه وبين نفسه ومن ثم ابتسم وقال بصوت عالٍ:

- "إيلياء" مرحبا

- هذا عمر ابن عمك. . .

هكذا عرفني أبي عليه، كان عمر يُخبئ خلف ظهره شيئًا، ومن ثم اقترب مني ومدَّ كلتا يديه وبسط راحتيها، فظهر كيس شفاف منفوخ فيه غزل البنات، تراجعتُ خطوةً للوراء واختبأ نصف جسدي وراء ظهر أبي، جحظت عينا عمر وهو ينظر إليّ وإلى أبي بشكل مستمر.

- "إيلياء"، خذيه إنه لذيذ، وعمر ولد لطيف.

- لا أريد

كنتُ لئيمةَ الروح حينها، رغم أن غزل البنات من الأشياء التي كانت تسعدني وكنت متعودة على أخذه كما المجاملات والسكاكر من جارات جدتي أو الذين يبدون إعجابهم بجادئلي، أو من عاملة المخبز التي تعطيني خبزة الأطفال عندما نكون في السوق، ولكني كنت وقتها كتلة من شيء موجوع متحرك لا شيء يفرحه وينتظر عالما آخر أو العالم ينتظره.

عاد أبي ينظر إلى الأعلى، وهنا ظهر نصف جسدي المختبأ وراءه، رفعت عيناي عاليا فرأيتُ شرفةً على شكل قوسٍ كبير يغطيها سقفٌ كمربعات خشبية عتيقة بُنيِّة اللون، لونها احترق بفعل الشمس فأضحى أكثر دُكنة، وظهر وجه أبيض ذو أنف محمر جدًا وحاجبان أبيضان يتخللهما لون الرماد لكنهما كثيفان كأبي، رجل كبير في السن يلتحفُ شالًا كبيرًا بُنيّ اللون أيضًا وأطرافه مقصبة بلونٍ ذهبي، هكذا كان وصفي حينها، نظر أبي إليّ وقال:

-هذا جدك أحمد.

هززت برأسي و صعدنا درجات بيضاء ضخمة إلى باب المنزل الكبير، وتحركنا قليلًا باتجاه صالة كبيرة، كانت معتمة قليلًا لأن الضوء كان في وجهي من خلال الشرفة الكبيرة المقابلة للباب، تحولت الأشياء كظلال فانعدمت رؤيتي قليلًا أول دخولي. كان هناك خليط كبير من الروائح والأصوات والحركة، لم أكتشفه قبلا في حياتي، لكن الإحساس الأول الذي شعرت به هو البرد، فكل شيء يحيط

بي من بلاط أبيض يلمع والدرج من رخام أبيض ذي أعمدة ضخمة أكبر مني. خليط الأصوات كان مقسما، من جهة كان هناك صوت من ينزل ببطء من على الدرج مع رنة، وصوت آخر ينادي "إيلياء" ويجري باتجاهي ويقبلني بنهم كبير، كانت امرأة حنطية اللون طويلة رفيعة تشبه أميرات "ديزني" -هكذا رأيتها-، كانت عمتي، وبعدها ظهرت طفلة صغيرة ذات فستان قصير وحذاء مفتوح تحته جوارب بيضاء مثنية ومكشكشة كثيرًا ، يمسك عمر بيدها ويشير لي ويقول" سارة" ويشير علي وينظر إلى وجهها منحنيا ويهمس ""إيلياء" ".

كان يردد اسمي ببطءٍ لها، وهي تحاول أن ترده وهي تنظر إلى حقيبة الظهر على شكل دب صغير أبيض التي أُمسكها بيدي، كانت هدية العيد أيضًا من أمي وفيها عبقٌ منها، فخبئتها وراء ظهري!.

صوت الكعب العالي الذي بدأ يصدر منذ أن دخلت إلى المنزل ورنين غريب يرافقه، أصبح أقرب لي وتحديدا من خلفي أكثر وأكثر وويصاحبه أيضًا عطر قوي جدًا يثير رعب حواسي الشمية بقوته وفظاظته. كانت "زوجة عمي"، قبلتني ومسحت على رأسي بسرعة وأكملت حديثها مع أبي وعمتي وهي تضع يدها على خصرها وتتكئُ بميلان على الثانية الممسكة بباب المنزل!

أما أنا، فبقيت واقفة كدمية قُدمت في عبوة كبيرة الحجم لعمر وسارة يتفقدانها ويستكشفانها ويدوران حولها.

من كلّ هذا كانت عيناي تتركز فقط على آخر البيت، حيث ما زال صاحب الشال البُنيّ الكبير واقفًا، أو كما قال لي أبي أنه جدي أحمد. أكملنا باتجاهه، كان وجهه

أبيضا أكثر عن كثب وأنفه أحمر جميل كقطة، وابتسامته رغم أنها بدت ثقيلة تحتاج لجهد إلا أنها جميلة جدا، يرتكز على عكاز بُنيّ ذي مقبض فضي. بكل جماله هذا بعيني الصغيرتين، إلا أنني لاحظت يومًا بعد يوم أن الكل يهاب الجلوس معه بصمته المستمر، وأن عمر فقط هو الأقرب له، إلا أنه كان الأقرب لي أيضًا في كلّ هذا المنزل بعد" نانا خديجة "ومع الأيام عمر!

وجود "نانا خديجة" كما كنت أُسميها، والتي تعمل في المنزل والسبب برائحة الطعام المركبة من تفاصيل كثيرة والزكية، الرائحة الوحيدة التي لفتتي فقط أول دخولي لهذا البيت، أحدث نوع من الاتزان الذي ربما حماني من الانهيار، لحياة ذابت كلّها مع غروب الشمس الأخير في الليلة التي تركت فيها بيت جدتي في ألمانيا وتكون لي بيت غيره، "هذا التكون لم يكون سهلا ولا يشبه تركيب الليغو كما حاول أبي أن يلطفه ويصفه، كان أشبه تمامًا ببركان انفجر وسط مياه من الفوضى والغرق فكوَّن جزيرة جديدة غير مأهولة وقد قُذفتُ فيها وعليَّ أن أتأقلم لأمارس غريزة البقاء. "

وجودها أيضًا أعطاني نسخة مقلدة لوجود جدتي وليضيف بعض من الحنان لفتاة صغيرة تركت أمها التي ماتت بمرضٍ خبيثٍ وأتت مع أبيها الذي يلازم عمله كأنه ابنه الثاني الذي يحتاجه أكثر مني. أعرف الآن أنها كانت طريقته ليهرب من هذا كلّه وأن أمي كانت وحدها تعرفه، لكني أعرف أيضًا أنه يحبني كثيرًا وإن أخطأ بصمته وانشغاله وعدم مواجهتي بأنه كان يهرب من كلّ هذا!

كانت "نانا خديجة" تشرف على حمامي وترتيب شعري وتقلم لي أظافري وتأخذني

لحضنها، وتتركني أجلس على طاولة المطبخ أراقبها وهي تطبخ، وتحاول أن تردد لي كلّمات عربية، إلى الآن هذه الكلمات لازلتُ ألفظها بلكنتها هي وحفظت بسببها مع مرور الوقت أمثالًا شعبية وكأنني من أقدم نساء الحارات البسيطة الجميلة.

كانت مبتسمةً دومًا لي وتلف على خصرها مريول أخضر اللون، وتجمع شعرها من خلال منديل أبيض تربطه إلى الخلف يخفيه كلّه، إلا من بعض شعرات تظهر عند تعبها من جانبيه، و لها معطف له رائحة زكية جدًا، أسود اللون تلبسه مع حجاب أبيض عندما تغادر البيت وتحضر الخضار الطازج، كانت الأكياس السوداء والبرتقالية الشفافة تملأ يديها ونحاول دومًا أن نساعدها أنا وعمر بحملها عندما نقابلها عند البوابة. لم أعرف كيف وصلت إلى هذا البيت في البداية، ولم أنتبه، واعتبرتها فردا من العائلة رغم أنها أساسها، وكنت أشعر بسعادة عندما أذهبُ في الليل إلى غرفتها الدافئة والصغيرة، لتحكي لي قصصًا عامية كثيرة من التراث.

بعدما كبرت عرفت قصتها، سألتها ذات مرة ألا يوجد لك أهل وأقارب؟

كان سؤالي مفاجئًا وربما فظًا ومن دون أن أحاول أن ألطفه فرأيتُها تتوقف عن تحريك خليط الكعك الذي كنا نعده سويًا ومن ثم رفعت رأسها وقالت:

- لا، الذي أعرفه أنهم ماتوا في حادث وتربيت في ملجأ ولم يسأل أحد عني، لكني هنا أعتبر نفسي داخل عائلتي وسعيدة. لحظتها رأيت أن الذي مررت أنا به أمامها لا يساوي شيئًا، فأحالت بوجعي خجلا، فهي لم تفقد بريق روحها وعينيها الجميلتين، ولم تنسَ أن تبتسم وأن تُعطي وتقدم وتهتم بي بهذا القدر، وأظن في

لحظات كثيرة أنها كانت ترى صورتها فيّ فتحيطني بهذا الكم من الاهتمام. "إنها من أهم الاشخاص الذين تركوا أثرًا في حياتي، وألصقت جزءًا من المرآة المكسورة التي كنت أنظر بها إلى نفسي!"

أعرف أنني تعلقت بها من أول يوم بعدما اجتمعنا أول مرة على المائدة عند وصولي، كانت الطاولة كبيرة جدًا، وهي تجلس بجانب سارة على طرف المائدة ولا تأكل قدر محاولتها لإطعام سارة وتنظيفها لما تحدثه من فوضى وتذمر مستمر، وعمر بجانبهما يهمس لسارة من دون أن يلفت انتباه أحد غير الغريبة الجديدة التي لاحظت هذا وهي تراقب الجميع ولا تأكل ولا تفهم اللغة التي يتحدثون بها باستمرار، الآن أعرف أنني كنت الطبق الدسم وليس الطعام، فالحديث كان عني، لأن أغلب لقاءاتنا على الطعام بعد ذلك كانت صامتة ومتفككة. فجأة باغتت الجميع سارة ببكاء عالي يخترق المكان بقوته وصداه:

- عمر ماذا فعلت لسارة؟، خديجة أسكتيها.

قالت ذلك أمهم وصوتُ أساورها يضربُ في أُذُني بقوة وبشكل مزعج أكثر من بكاء طفلتها، فيحرك دائمًا عمر كفيه بأن يفتحهما جانبًا ويهز رأسه، كانت عادة له افتعال بكاءَ أخته:

- لم أفعل شيئًا، ولكنها دلُّوعة وتبكي دائمًا

ووسط هذا كلّه كانت "نانا خديجة" تراقبني وتشير بيدها بالمعلقة إلى فمها أن أقوم بالأكل، لم تجد لغة لتكلمني حينها فكانت تستخدم الإشارة، حتى عندما وقفتْ

على النافذة المقابلة للطاولة وهي تحاول إسكات سارة، كانت تنظر إليّ وتشير بيدها التي أصبحت فارغة من معلقة الطعام أن آكل، وتبتسم.

وفي المساء وبعدما تعرفت على غرفتي، التي بدت جميلة بسرير خشبي بُنّي وشرفة ذات باب مُقسم لمربعات زجاجية ضبابية خلال حدود بُنّية. وبعدما ألبستني ملابس النوم أشارت لي بيدها حيث ضمت أصابع الوسطى والسبابة والإبهام مع بعضهما بأن أنتظرها، وعادت تحمل لي صينية طعام فيه خبز وحليب وجبنة، وأشارت لي أن آكل وهي تضم يديها إلى بعضهما.

"تفاصيلها معي لا تمحى من ذاكرتي ولا من روحي وكونت لها فعلا شقًّا جميلًا داخلي، فهي من الأشخاص التي لم تهزم الحياة عطائهم وطيبتهم، فأضافت ريحًا طيبة كمسك طاهر لها. "

لم أكن الطفلة الملاك، كنت عنيدة جدًا ولئيمة أحيانًا وأقضي أوقاتًا في الغرفة وحدي بسرور، وإن كانت "نانا خديجة" وعمتي ترى أنها عقاب لي، رغم أن عقابهم كان لطيفًا وبقلب محب منهن بالذات هن الاثنتان، وكان آخره ينتهي بحديثٍ ونقاشٍ وقبلة، لكني لم أعتبره قَطّ عقابًا أن أجلس وحدي بعيدًا عنهم كلّهم، غير أن عمر الطفل الشقي كان قادرًا على أن يصنع لي أحيانًا عالمًا داخلها، بضحكاته وتفاصيله المضحكة خلال محاولة الحديث من وراء الباب معي أو تمرير الحلوى من تحت عقبه، أو بربط شيء بحبل وإنزاله من السطح على شرفتي وهو يلوح لي من فوق، وكنت عندما أخرج من العقاب أمشي وأراقبهم كيف ينظرون لي وكأنني أسيرة محررة وأحتفل بنفسي، فعلًا كنتُ مشاغبةً رغم أنني أستطيعُ أن

أكون بريئة ومسالمة وحمل وديع متى أريد أو متى يتطلب مني ذلك!.
في أول عتبة من حياتي الجديدة هذه كان عدم تكلمي اللغة العربية وحتى الإنجليزية بكلمات بسيطة طوق نجاتي الأول وطوق هلاكهم ونجاة بعضهم.
فكرة أن طفلة لا تتكلم اللغة العربية أمامهم جعلهم يروني كالذي يرتدي طاقية الإخفاء، وجوده في المحيط يساوي صفرًا، كانوا بذلك يتحدثون أمامي بكل شيء ونسوا أو جهلوا أن تعابير الوجه والكلام يترسخ في ذهن الطفل أكثر وأكثر ويزداد مع مرور الزمن، هذه الفترة من حياتي كانت كفيلة لأن أرى كلّ الوجوه على حقيقتها، "فالوعي الصغير للطفل والمقابل له ذاكرته الكبيرة التي تحتفظ بالأشياء، ستترجم فيما بعد وحتى إن لم يذكرها بتفاصيها، وستتحول لردود أفعال، وهذا ما حصل معي"
حتى الضيوف الذين يهربون إلى غرف المنزل الفارغة ليتحدثوا أو يرتبوا ثيابهم أو يتأكدوا من مظهر وجوههم وباروكة الشعر وطاقم الأسنان، خصوصًا في الاجتماعات العائلية الكبيرة التي تُخرج لك أُناسًا كُثُر على شكل أقارب ومعارف، في البداية كانوا يعتبرونني غير موجودة حولهم، لأنني لم أفصح عن تعلمي كلّمات وجمل عربية في الشهور الأولى، كنتُ صامتةً كخرساءٍ، وأخاف أن أتكلم، فقط أُخزن وأُخزن!
أما محاولات سيدات العائلة والجارات العازبات للتقرب مني وبالتالي التقرب لأبي العازب، كلّها كنتُ أعيها جيدًا، خصوصًا أن أُخت زوجة عمي كانت الحالة التي جعلتني اكتشف سبب تقربهن -وتقربها هي بالذات- لي بعدما سمعتهما

تتحدثان، كانتا نسخةً وتوأمًا سياميًّا مُلتصق الروح المنسوخة عن بعضهما، وبنفس الرائحة، لكن بزواجها وسفرها انتهت المصلحة، وتمت عملية الفصل بينها وبين أُختِها فازدادت معي زوجة عمي سوءًا , وشممتُ رائحتها المحترقة ضدي أكثر وأكثر، كأن عملية الفصل أجريت بينهما بفك لحام حديدي تمامًا كقسوتهما.

وفي الشامة السوداء التي تصطنعها رأيت دومًا لون قلبها، لا أدري إن مارست الكره ضدها -لأنني لم أكره في حياتي شخصًا- أم لا؟، لكني مارست بالتأكيد عدم التقبُّل والنفور والشعور بالإعياء، والطاقة السلبية بوجودها، "هناك أشخاص يستطيعون أن يمتصوا طاقتك كلّها وتشعر بإحساس الوهن فعلا في حضرتهم."

كانت حالة ليست طبيعية تظهر أمامي كشبح يوميا، كثيرة التذمر والأسئلة والتدخل والصوت العالي والحديث عن عائلتها وثرائهم ومن هم ومن أيّ سلالة وتتفقد صندوق الذهب خاصتها أكثر من تفقدها أولادها، وأعترف أنني التي أخفيت إسوارة لها، وحفرت تحت شجرة في فناء البيت وخبأتها، ولم أشعر بالتوتر ولا بالخوف وأنا أراها تفتش عنها، ورغم إعادتي لها بعد فترة من دون أن تدري وإحساسي بالذنب، إلا أنني أيضًا وجدت فرحتها بها تعادل طفلًا جديدًا قد أنجبته أو كأن ابنًا تاه منها ثم عاد إليها، أو كفرحةِ شفاءِ سارة وعمر بعد كلّ مرض لهما. لم أحزن لما فعلت بعد هذا الموقف، لكني قطعا تعلمت أن لا أكرره فقط، وألا أصبح انعكاس الشخص الذي أمامي إن كان سيئًا، سأخسر نفسي بهذا، عليّ فقط

أن أبتعد عنه، وأنا أحترف فن العزلة.

بالإضافة إلى أنها كانت ترغب أن يكون الجميع تابعين لما تريد، أو حاشيتها بالأحرى، وألا يتم إزعاجها في فترة فنجان قهوتها الصباحي الذي يظهر بجانبه دومًا دخان سجائرها نصف المطفئة، ولا نقاطع حرمة زياراتها الكثيرة ونطبق الهدوء الكامل حين تقوم بطقوس صباحاتها، ويتطلب منا الأمر أيضًا أن نلعب دورا تمثيليًا محكمًا يخضع لإخراجها وتأليفها ونقدها عند مجاراتها في لبس قناعها ذي الابتسامة واللطافة أمامهم.

كنتُ بطلةً أنا بهذا معها، عندما تلمحني يتحول لطف العالم كلّه فيها تجاهي وتخبرهم كم أنني مسكينة وأنني... وأنني...

الأمر مع مرور الوقت -خصوصًا عندما بدأتُ أفهم اللغة العربية- كان يجرحني ويحزُّ في نفسي ويتبلور لسؤالٍ: "لماذا تفعل ذلك، لماذا تقول هذا؟!" ويتشابك بسرعة مع نفس المواقف والتصرفات في الفترة الأولى لوصولي هذا البيت، بكلامها الذي ترددده وبركبها المكتنزة التي كانت تنزل بها إليّ ويظهر بعدها أمامي وجهها المليء بمساحيق التجميل والشامة السوداء المرسومة منها فوق شفتها اليسرى لتمارس الرفق باليتيمة أمامهم.

أصبحت أتحاشى الظهور بوجود زياراتها وأرفضها وأمشي وأتركها ثانيةً ركبتيها وأسمعها من خلفي تقول لهن وهي تحاول أن تعتصر صوتها:

-" هذا طبيعي، يا للمسكينة!! إنها تعاني من حالة نفسية سيئة "

حتى صوت احتكاك أساورها المبالغ فيه بفعل انفعالاتها الكثيرة كان كافيًا ليقاطع

أيّ شيء جميل وأن يغطي حتى على صوت المطر ونحن نتراكض تحته وهي تلوح بيديها لنا بأن ندخل إلى البيت.

ولا أزال أذكر، عندما سقطتُ وجُرح رأسي وهي تنظرُ من الشرفة ولم تعطني إلا التفاتة ظهرها لي، رغم أن جبهتي نزفتْ دمًا كثيرًا اختلط بالمطر ومازال للجرح أثرٌ عندما أرفع غرتي بقوة لأعلى، كأثرِ تصرفها.

ولهذا كنا نحاول الاختباء منها حتى نلعب كما يحلو لنا وحتى لا تفسد الأمر علينا، رغم أنها كانت تقدم لنا من دون أن تدرك لعبة (الاستغماية) فنستمتع رغمًا عنها بطفولتنا.

حتى سارة كانت تتنازل أحيانا عن التصاقها بلعبها ومشاركتها جلسة الشاي بقطع بلاستيكية بلا حياة، فتلعب أحيانًا معنا رغم أنه إذا اتسخ فستانها وجواربها المكشكشة كنا نواجه سخطها من خلال صوتها العالي ورنين أساورها وجملها المعتادة وتوبيخها لسارة ونهرها عن اللعب معنا ثانيةً حتى لا تتعلم من طباعنا، وأن تبقى مع دميتها خصوصًا عند حضور صديقاتها، لتريهم جمال ابنتها وهدوئها ونظافة ملابسها وكيف تجلس كالسيدات الراقيات وهي تحتسي الشاي بأكوابها مع لعبها على طاولتها الصفراء الصغيرة.

سارة كانت نسخة تحاول أن تتبع أمها أو تحاول أمها أن تستنسخها منها، بالرغم من أنها كانت في كثير من الأحيان تظهر "كطفلة بريئة مترددة وتلمع عيناها وهي تحدق بقوة وتقف وتراقبنا وتود لو تشاركنا اللعب، وكانت فعلا أحيانًا بل كثيرًا تشاركنا".

تعلمت من هذا أن أتقبل اختلاف الآخر وأن أضع مبررًا وسيناريو لما مضى في حياته، وأن أحكم على جوهره إذا ظهر لي بموقف، واستطعت من خلالها أن أكسر نفسي قليلًا ولا أطلب من الذين حولي أن يكونوا بصورتهم المثالية لي لأتقبلهم، تعلمت هذا أيضًا بالتأكيد من عمر، هو لم يكن طفلًا محبا لهما "لأنهما فقط أمه وهي أخته "، فقد كان عكسهما بكل شيء، ولكن كان يعرف كيف يقدم لهما ما لا يأخذه منهما كالاحتواء والحب، وأنا في كثير من تصرفاتي لاحقا لاحظت أني أُقلده دون أن أدرك "، أستطيعُ أن أتمرد وأتقبل مثله في آنٍ واحدٍ".

أما عمي، فكان المعنى الحقيقي لاكتشافي أنه يمكن أن يتواجد الصفر في الحياة على شكل إنسان، في الجمع والطرح لا يؤثر، فقط يظهر تأثيره السلبي في المعادلات التي تحتاج للضرب، فيلغي كلّ شيء عندما يحاول أن يكون ذا قرار أو حكمة في حل مشكلة، أو بالقسمة بعد موت جدي فقد كان أكثر شخص رأيته نهمًا للمال حتى أكثرَ من زوجته، بطبيعة الحال كانا يناسبان بعضهما.

بل أعتقد أنه كان كما هي لكن الفرق أنها أضعف من أن تتحمل أقنعتها دومًا، أما هو فقد اختار قناعًا لا ينزعه أبدًا، وكان قويا بحيث استطاع احتماله، فكانت له قوة من نوع آخر، فالقوة في الحياة لاتعني دومًا الشيء الجيد، وقد تكونَ النقيض تمامًا، كما الدمار والتجبر وجنون الامتلاك والعظمة التي يحيط بنا تحت مسمى القوة، وهما كانا مثالًا ونقلًا حيًّا ومباشرًا على مدار حياتي معهم لهذا.

الفصل الرابع

تفاعلات كيميائية

الحب، الحياة والدين هم كالكيمياء

إن وقعت في حب أحدها لن تفشل في حل معادلاتها.

وستقتنع بها بسبب التجربة،

"لا للصدفة والحظ أيّ دور بهذا. "

القدس، فلسطين المحتلة

هذا البيت لم يكُن مثلًا كبيتٍ صغير فيه جد وجدة سأعيش معهما وأكون مدللتهما وتمضي حياتي بشكل طبيعي بين زواياه وجدرانه. بل كان انتقالًا كاملًا من هذا مع أمي وجدتي إلى ما سُمي ببيت العائلة الكبير، كلّ شخص فيه يحمل شخصية مختلفة تمامًا وقصة وتصرفات خاصة به. لا شك أن هذا كان مرهقا ومستنفدا لي أحيانا، لكنه أيضًا كان بمثابة مجموعة من العقبات والنقم عايشتها فصقلت زاوية حادة في، إلا أنها واجهتني بالحياة مبكرا جدًا فلم تتركني "إيلياء" الطفلة الألمانية الشقراء الصامتة فقط، بل جعلتني أدرك أن عليّ أن أتعلم من كلّ هذا ولكن أن أنتبه، ألا أجرها كأثقال خلفي في مراحل حياتي القادمة وأن أكون قادرة على قتل النسخ السيئة مني والمستنسخة من غيري تأثرا، وإعادة محاولة ولادتي مجددا!

لقد قرأت في مرة للكاتبة (ليزا نيكولس) وعنى لي الكثير ما كتبته بناء على تجربتها الشخصية، ومن أكثر الأُمور التي أثرت فيّ مما قرأته لها: أنها في أصعب لحظات حياتها، اللحظات التي وصلت فيها إلى أسوأ نسخة من نفسها في كلّ شيء وبحساب بنكي لا يتعدى العشرة دولارات تقريبًا مع طفل صغير نتيجة علاقة رجل معها استغلها وعنفها جسديا وجنسيا وانتهى به الأمر بعد تخليه عنها في السجن. وفي لحظة وقفت فيها أمام نفسها وقالت بحزم: "لن أبقى هكذا منذ الآن"،

وهي تنظر إلى ابنها وتعده بذلك، فقررت أن تترك كلّ شيء وأن تنجح فقط وأن تتخلص من الماضي وحتى الأشخاص لفترة، كانت تقول:

"إن باب النجاح إحداثياته ومقاسه لا تسمح بمرور أيّ شخص إلا الذي صنع له، ومشكلتنا أننا نجر كلّ الأشخاص والذكريات والتفاصيل معنا خلال محاولة عبورنا لهذا الباب، فنفشل ونبقى مكاننا، الأمر يحتاج فقط أن نحاول أن نخرج منه لوحدنا أولا ونتقدم قليلًا، ونعود بعد ذلك لنأخذ الذين نحبهم واحدًا تلو الآخر وحتى الذكريات والأشياء نستطيع حينها أن نستعيدها، والفرق هنا والذي اختلف أننا وقتها سنكون أقوياء جدًا وذوي قيمة أكبر لهم وبالتالي سينجون معنا إلى عتبة النجاح. ولكن علينا أيضًا أن نتذكر أن نأكل في كلّ صباح قطعة من فطيرة التواضع وأن نطلب ونتعلم من كلّ شيء وكل شخص نقابله ونجد عنده أيّ قوة وقصة نجاح، حتى وإن عبرنا هذا الباب، يجب أن نستمر بالتعلم، حتى أصغر الأُمور كيف يأكلون، وماذا! وكيف يتصرفون، وما الذي عاشوه ولم نعشه ونختبره، بهذا فقط نكون عبرنا الباب المخصص لنا وما بعده بسلام"، والآن هي بعد كلّ ذلك من أهم المؤثرين في العالم.

قراءتي لهذه الجمل مؤخرًا جعلتني أُقارن ما فعلت خلال حياتي وأُراجع ما مررت به كاملًا خصوصًا أثناء كتابتي لقصتي، وأن أبدل إحساس الذنب والتخلي والقسوة والصمت أحيانا بإحساس آخر تمامًا أراحني جدًا وهو القوة والإصرار.

فعلا كانت "ليزا" جهاز كشف الحقيقة لي مع مخدر بسيط لعقدة التقصير، فأنا فعلا كنت في كلّ مرحلة أحاول أن أعبر إلى الباب الذي صنع من أجلي بسلام،

وإن نظرت إلى الخلف وراجعت شريط حياتي سأجد أنني لم أتخلى عن أشخاصي، على العكس فهم مازالوا في حياتي هم ذاتهم وزاد فقط عددهم بمن مثلهم، ومن رحل بقي في ثنايا تصدعات روحي، وأدركت أنني كنت دون أن أدرك آكل من فطيرة التواضع يوميًا وأتعلم من كلّ شخص جمعنا القدر وعشنا معا تفاصيل تجربة أو موقف، بعيدا عن شعوري بتقبله وعدمه.

الأمر باختصار أصبح قناعة كاملة لدي اليوم، حتى في أصعب اللحظات وفي حالات الطوارئ سيخبرونك أن عليك أن تنقذ نفسك أولا قبل طفلك حتى، أو أيّ شخص آخر، سواء كمثال من الغرق أو بوضع قناع الأكسجين في الطائرة، حتى تستطيع إنقاذه ومواصلة حمايته، ستتعلم هذا في أول دروس الإسعافات الأولية، وستسمعها مرارًا وتكرارًا في كلّ مرة تنتقل بها من مكان إلى آخر جوا وبحرا وبرا، فلمَ نفشل بتطبيقها في حياتنا حين نحاول الانتقال للأفضل؟

من الأشخاص الذين أكلت من فطيرتهم مرارًا وتكرارًا، وأما السر الآخر الذي أضاف لتكويني في هذا البيت والعالم الجديد جانبًا مشرقًا، هي مدرسة اللغة العربية الشابة، الطالبة في السنة الأولى بقسم اللغة العربية، كانت هذه المعلمة الشابة الملاك الذي أهداني عالما خاصا وحول طيف توحدي لقوت بقائي وتطوري وكينونتي، رفقتها كانت "قريني المسالم" الذي بقي معي حتى كبرت. لديها خط جميل جدًا، كأنها ترسم اللغة بيديها النحيلتين، تعمقي بمراقبتها وهي تكتب الكلمات وتشرحها لي بأسلوبها كان من أسرار عشقي وشغفي لتعلم العربية، كانت محاولة لفظي حرف الراء المختفي بفعل حرف الغين في اللغة الألمانية عبارة عن

أوقات من الضحك المتواصل، خصوصا أن اسمها ريم فكانت تضحك دائمًا وتقول لي:

- أنتِ تحوليني لـ"غِيم" في السماء، سأغضب وأمطر وأُبللكِ، هيا ركزي

يومًا بعد يوم تمكنت قليلًا من اللغة وأصبح يستهويني الكتاب الذي يظهر عندما تفتح حقيبتها وتخرج أوراق الدراسة منها، كان مُكتنزًا وحجمُه صغير وطرفُ أوراقه يميل للون الأصفرِ الباهتِ، أيّ مختلف عن باقي الكتب المدرسة بالعادة، ويذكرني بكتب أمي وهي تقرأ على الكرسي في غرفتها، شممت حينها رائحة ذكرتني فعلا بأمي "رائحة ورق كتبها "

لم يكن كتابًا واحدًا بالطبع، كان يتغير كلّ فترة، وعندما سألتها ذات مرة، قالت لي أنها تعتبره مؤنة لها تتركه في حقيبتها لتستغل دقائق الانتظار أو أثناء ركوب المواصلات فتقرأ، وأنا تعلمت هذا الطبع من "ريم" ومن ذكرى أمي؛ فرافقني إلى وقتي هذا.

بعدما شعرت واقتنعت بشغفي وأسئلتي المتكررة عن الروايات، أصبحت تجلب لي الكثير من الكتب التي بدت صغيرة ولطيفة، وأخذت تكبير تدريجيا ويطبع عليها علامة مكتبة البلدية والتعليمات أن لدي أربعة أسابيع لإنهائها. فقررت أنا و عمر الذهاب معها إلى مكتبة البلدية وسجلنا اشتراكنا الخاص عند مسؤول المكتبة الشاب اللطيف "طارق" لنخلص "ريم" من وساطتها المرهقة لنا من خلال بطاقتها، وأصبحنا نذهب باستمرار وصرتُ أقضي وقتا طويلا بين رفوف الكتب

يشاركني عمر، إلا أنه أحيانًا كان يشعر بالضجر فيجلس على الطاولة لينتظرني وهو يقلب المجلات المصورة كقصص هناك.

عمر رفيق العمر وصديقي الصدوق، كنت أخبره أنه كذلك بالنسبة لي، وكلما كبرت وتشاركنا اللحظات والاهتمامات كالكتب كان شقُّه في داخلي يكبر أكثر وأكثر، رغم أنه كان مزعجًا أحيانًا ومتطفلًا ويخرب علينا دروسنا، لكن "ريم" كانت تتقبله وتحبه، وفي عقابٍ ذات مرة له جعلته يكتب درس إملاء مائة مرة، كنتُ أعتصر معدتي ضحكاً وأنا أراقبه ممسكا بالقلم الصغير جدًا خاصته، لا أدري لماذا كانت كلّ أقلامه منتهية العمر، ويشدُّ عليها بقوة على الورق وهو مطأطئٌ رأسه للأمام محاولًا أن يحافظ على صبره، على غير عادته، لينهي عقابه، بعد أن يقتّم لون وجهه، ويصيبه من التعب ما يصيبه.

"ريم" كانت أيضًا اكتشافي الجميل لمعنى السعادة الخفية وحب الكتب المبطن بأشياء أخرى، ففي إحدى المرات صممتُ على أخذ كتابا ضخم ومغري للقراءة:

- "أرجوك "ريم"، لقد أعدتُ كلّ الكتب قبل الامتحانات وغدا امتحان اللغة العربية، وهو آخر امتحان، بعده سأقرأه وأعيده لك، وخلال أربعة أسابيع أعدك، لقد لفتني جدًا".

كنت أنظر إليها وأحاول تحويل عينيّ لشكل قطة لطيفة لاستعطافها، الأمر هكذا ينجح معها دائمًا:

-"هو ضخم جدًا ومعقد لن تستطيعي، سأقوم بقراءته وأعطيكِ إياه، قبل مجيئي أحضرته من المكتبة ولم أقرأه بعد وهو النسخة الوحيدة هناك.

- أرأيتِ؟، لن أجده هناك، وهذا أجمل ما في الأمر، أنا هذه المرة سأعطيكِ نبذة عن كتاب ستقرأينه، لا أنتِ، أحب تبادل الأدوار، هيا ريم أرجوكِ.

- "إيلياء" أيتها العنيدة، حسنًا، خذيه، لكن لا تتأخري في قراءته، لا أريد أن أُحرج مع طارق.

- لا تقلقي، وما بالك تعطيني إياه كأنه أحد أطفالك؟، لن آكله، تأكدي.

ضحكت ضحكتها الرنانة المليئة بالحياة والتي تتخللها بحَّةٌ جميلةٌ جدًا:

- لا بد أن تتعلمي أن تتحدثي بشكل رسمي معي، أنا معلمتك.

- حسنا يا معلمتي الجميلة الرائعة القوية

- حاولي أن تكون علاماتك غدًا جيدة وإلا سأطلب من والدك أن يلغي اشتراكك في المكتبة.

- ما دمت معلمتي لا تقلقي، أرأيتِ كم أنا لطيفة وأتكلم بتهذيب ووقار؟

"هزت رأسها وهي تجمع أغراضها وتلم ألاوراق وتودع الكتاب":

- ليس هناك أمل، لكني أحبك كما أنتِ، سأتصل بك غدا بعد الامتحان

وهممست "أتمنى ألا تردَّ عليَّ زوجة عمك فقط"!

ضحكنا بصمت، وأخذتُ الكتاب منها ووضعته على المنضدة بجانب سريري،لم أفتحه لأني وعدتها ألا أقرأه ولا ألتهي به ليلة الامتحان، وفيت بوعدي ونمت، وبعد أن عُدت من الامتحان في اليوم الثاني وخابرتها في الهاتف:

- مرحبا معلمتي الرائعة أنا "إيلياء" أود أن أقول لك أنني قدمت جيدًا في امتحاني وأنني أريد أشكرك، هل كم الرسمية هذا كافي؟!.

- لقد أفرحتني كثيرًا ، لا بأس به تتطورين مع الوقت.
- لقد اتصلت فيك أنا بسرعة حتى لا يتعكر مزاجك في حال اتصلتِ وردّ عليك شخص، نعرفه كلانا.
- حاولي أن تكوني هادئة ولا تفتعلي المشاكل، قلتُ ذلك على سبيل المزاح.
وانتهى الاتصال بيننا، "ريم" كانت تمتلك شيئا مميزا أيضًا، كان تحاول أن تعيد الاتزان لتطرف المشاعر عندها دومًا وتحاول أن تعلمني هذا، سواء في الحب أو في النفور، "تحاول أن تمسك عصا الأُمور من المنتصف فتميل وتعود تتزن ".
وما إن حلَّ المساء واستيقظت من نومي الذي امتد من بعد الظهيرة حتى غروب الشمس تمردًا بعد انتهاء الامتحانات، وجلست في سريري بعدما طمأنتُ "نانا خديجة" أنني أكلت، استعددتُ لقراءة الكتاب بحماس كبير وما إن فتحته وبدأت بتفقد صفحاته حتى وجدت في منتصف الكتاب رسالة:
إنها من الشاب الوسيم في المكتبة –"طارق"–، كتب لها رسالة، كانت الرسالة الأولى منه، وكانت بالنسبة لي أجمل من أيّ كتاب، كان أُسلوبه جميلًا جدًا وأذكر منها وصفه لها "بأنها أول النساء فيه وآخر النساء قبل عهد التصنع، وأن رائحتها تظهر في كلّ أوراقه ومرورها يوميًا أمام المكتبة في طريقها لمدرستها هو إعلان الصباح لديه، عاتبها عن رفضها الحديث معه لوحدهما وسألها عن مدى ثقتها به، وأخبرها أنه يعرف أنها تتاخر بإرجاع الكتب دومًا لترى ردة فعله". كتب الكثير من التفاصيل، كانت ورقةُ الرسالةِ مملوءةٌ سطورُها بكلمات كثيرة ومرصوصة بجانب بعضها على الوجهين، وكأن الكلام يشتاق حتى لبعضه داخلها،

وطارق يحاول أن يختصر بهذه السطور كلّ ما يجول بداخله، حتى في الحاشية البيضاء، كانت تمامًا كحبر تفجَّر على ورق وباح بكل شيء، هذه أول مرة أُواجه فيها حالة حبٍ حقيقية، شممتُ رائحةً لم أعرف تفسيرا لها وقتها ولم أختبرها قبلًا، لكنها كانت "تشعرني بالسعادة تمامًا كارتفاع الدوبامين في جسدي عندما أتناول الشوكولاتة، نفس الإحساس وقتها، خالٍ من كلّ الزيادات والإضافات وخام جدًا كما الشوكولاتة الداكنة التي أحب."

أمضيت الليلة كاملة على سريري أعيد وأعيد قراءة الرسالة، وفتحت المعجم لأرى معنى بعض الكلمات، كان لديه أسلوبٌ بلاغيٌّ رائعٌ ذو تفاصيلٍ مدهشةٍ، ما زال خطُّه محفورًا في ذاكرتي وبريق عيني ريم الجميلة وكلماته يضيئان لي طريق الحب في الحياة وأنا أختبرها من خلالهما داخل جدران غرفتي.

في صباح اليوم التالي اتصلتُ بها وأنا أعد ألف احتمال للحديث :

- صباح الخير "ريم"، هل لديك وقت اليوم؟

- نعم انتهت الامتحانات في مدرستي أيضًا ماذا هناك؟ هل أنت بخير؟

- نعم نعم، لكن الكتاب فعلًا صعب وأود لو تذهبين معي إلى المكتبة، عمر ليس هنا ولا أريد أن أذهب لوحدي، وأيضًا أريد منك أن تختاري لي كتابًا، أثق باختياراتك دائمًا.

- بالطبع، سنذهب سويا، أحتاج لساعتين وسأمر بكِ.

- رائع، أنا في انتظارك.

كونها لم تسأل عن الرسالة على الهاتف وعندما وصلتْ أيضًا جعلني أتأكد أنهما لا يتحدثان بشكل مباشر، ولم تعرف عنها، قبل خروجنا من بوابة البيت إلى المكتبة أعطيتُها الكتاب:

- أعترف أني فشلت.

- ألم أقُل لكِ؟ أخبرني طارق أنه صعب، لكنه مهم جدًا وعليّ أن أقرأه، سيضيف لي شيئًا جديدا بكل تأكيد، ولا تقلقي سأختار لك كتابًا مناسبًا.

كنت في ورطة أبحث عن طريقة لأضع الرسالة في حقيبة ريم من دون أن تنتبه وأن أُصور لها أن طارق وضعها، كنت أعرف أن معرفتي بسرهم الجميل سيقتل شيئا ما وسيجعل وجودي محرجا وحساسا ويوتر علاقتنا، لم أرد أن أفسد عليهما هذا بسبب عنادي المقيت.

كانت طوال الطريق تتحدث وأنا أهزُّ برأسي فقط وأرد "نعم نعم" وكلّ تفكيري منصبًا على الرسالة، وكيف سأنجز هذا الأمر. لو تصرفت بشكل غبي سأزيد الطينة بلة، وأردد لنفسي: " لماذا أنتِ عنيدة؟ وما شأنك بالكتاب، ها؟" وصلنا ورغم توتري، لكني لم أستطع أن أُخفي ابتسامتي الملغومة وأنا أراقبهما، لاسيّما طارق الذي خُيِّل له بأنها أتت ردًا على الرسالة بالموافقة. "يبدو أنني ساعدتهم بطريقة غير مباشرة"، رددت لنفسي هذه الجملة لأُخفف من الأصوات التي تتناحر في رأسي وتفكر بطريقة، وقبل أن نصعد إلى الطابق الثاني تجرأت وقلت:

- هل لي أن أطلب شيئًا خاصًا أستاذ طارق؟

– "طبعا"، قالها وهو يحرك رأسه لأسفل قليلًا لليمين كأنه يريد أن يصوب أذنه تجاهي ليسمع أكثر وأنا أقف على يساره.

– هل نستطيع أن نترك حقيبة الظهر خاصتي وحقيبة ريم عندك لنتحرك براحتنا فوق، في كلّ مرة في الممرات الضيقة بين الكتب تصطدم حقيبتي بها.

نظر كل من "ريم" و"طارق" لبعضهما باستغراب، "ما الذي تحاول هذه الفتاة شرحه وطلبه بحركة يديها الكثيرة والانفعالية!". رفع طارق كتفيه إلى أعلى وأشار لمكان بجانبه: "بالتأكيد طبعا، هنا يمكنكما "

نظرت لي ريم وهمست " لماذا "

ولأُكمل الهدف بدون اعتراض منها رددت بصوت عالي:

– هل تخافين أن تتركيها هنا؟، لا، لا تقلقي ريم، إنها بأمان مع أُستاذ طارق.

"فنظرت لي بطرف عينها أن لنا حديث آخر، سترين!"، ووضعنا حقائبنا وصعدنا إلى أعلى وأنا أريد أن أضحك ولكني كتمتها حتى لا تظن أني جننت، يكفي ما فعلته بالأسفل، وما سمعته منها عن أنني غريبة الأطوار وأننا قد أحرجناه!

– ريم، حقيبتي دومًا ممتلئة وكبيرة وأنتِ تعرفين أنني أضع فيها كلّ الأشياء الخاصة والمهمة، حتى لا أعود كعادتي وأرى أن زوجة عمي الرائعة دخلت غرفتي وفتشت بأغراضي، أنا لا أُخفي شيئًا، ولكن لا أريد أن يدخل أحد –وخصوصا هي– لعالمي أو يتعامل مع أشيائي وأوراقي!

بعد ما قلته، لم تقلْ شيئا أكثر عمّا فعلته، وحولت الحديث مباشرة عن الكتب، اخترنا كتابا وعندما نزلنا إلى أسفل، شكرت أنا طارق وأخذت من وراء طاولته

الحقائب ودسست الورقة من جيبي إلى جيب حقيبتها وأنا أُخفيها وراء حقيبتي الكبيرة، وانتهت مهمتي بنزعة غرور مني حتى أني إلى الآن أُحسّ بها وبخبثي نوعا ما حينها!

الأمر لم يكن فقط تصرف مراهقة في عمري وقتها، الأمر بمحاولتي أن أحتفظ بسر ما وألا أتطفل على حياة أحد كان أمرا مهمًا مارسته بهذا الموقف فتعلمته، وأعرف أيضًا أنني أُغرمت بفكرة المراقبة بصمت بسببهما واكتشفتُ شقًا للخبث فيّ أستطيعُ أن أطوعه ليكون شيئا جذابا فيّ لا أكثر.

وعندما تزوجا كنتُ أسعدَ شخص ربما في الحفل البسيط الذي يفيح فيه "رائحة الورق الطازج صباحًا للصحف بخبر مفرح"!

أنجبت ريم بنتين جميلتين كهي، وطارق أصبحت له مكتبته الخاصة الصغيرة التي لا أزور القدس دون أن أمر بها وأتفقد كتبها وتحضر "ريم" ونشرب الشاي سويًا بالنعناع فيتحول المكان باجتماعنا لغرفة ككوخٍ على جبل بجانب مصنع صغير للورق وبجانبه جذوع شجر كبير مصطفة فوق بعضها تنتظر تحولها لورق، فيغدو كلّ شيء معبق ومعتق برائحة ذات سحرٍ خاص لا تتشكل إلا في حضرتهما، رغم ضجّة التحذيرات لبناتهما بألا يمسَّا الكتب ولا يرمينها أرضا، بالمناسبة كانت إحداهن "إيلياء" الصغيرة كاسمي، وأسمع بسببها دوما:

"آآخ، إنها، عنيدة مثلك ".

هما شخصان رسما قوس قزح حولي ولوَّنا جزءًا من هالة الحضور التي تطوقني، ربما أنا لم أراهق كغيري بقصة عميقة لي ولكن من خلالهما عشت مراهقة

كاملة طبيعية وجميلة، ومن خلال قصتهما أُغرمت بالكتب والورق والحبر والرسائل المخبئة وفكرة الحب البسيط، أثناء اختباري ومراقبتي بصمت لكل شيء بينهما.

لم تكن ريم فقط التي لعبت دورا في لغتي العربية، أيضًا مدرستي دار الطفل العربي في القدس لعبت دورًا مهما في حياتي وكانت النعمة بالنسبة لي كونها تقدم اللغة الألمانية كلّغة ثانية، في البداية كنت الأضعف في العربية رغم اجتهادي، ولكن كنت المرجعية للكثيرات في اللغة الألمانية وبهذا السبب كنت أحظى بزيارات زميلات لي أحيانا لأُعلِّمهن بعضًا من اللغة الألمانية خصوصا قبل موعد الامتحانات، فاتسعت دائرة تعاملي وثقافتي بهذا المجتمع حتى لو لم يكن لدي أيّ صداقة حقيقية فيه منهن، لكني كنت قريبة من أحاديثهن ومشاكلهن وقصصهن وأخبارهن عن كثب، "كنت أُسجل كلّ هذا كمخزون مجتمعي استثمرته في حياتي لاحقا!".

كل تلك الأُمور التي تبدو صعبة ومعقدة وعشوائية وغير واضحة في السرد كانت أيضًا قاتلة وسبب لولادةٍ جديدة لتكون أُنثى صغيرة صامتة عميقة محللة وفية قوية عنيدة سهلة النفور وصعبة التعلق، لديها زوايا حادة كثيرة لكن بجوهر ثابت تدعى" "إيلياء"".

فكل شيء فعلا بدأت به من الصفر يوم دخلت بيت العائلة وانتقلت لعالمهم، تعلمت كلّ شيء مرة أخرى، اللغة وطريقة الكلام والتعامل وحتى الطعام كان لا يشبه طعامي الذي تعودت عليه ولا الخبز الذي افضله وحتى قدرتي على الحب

والتقبل والثقة في هذه الرحلة والمحطة الجديدة من حياتي كلّها خضعت لإعادة صقل وصياغة واختبارات من نوع آخر مررت بها أو مررت من خلال غيري بها، " كنت عصامية بمقومات الحياة البديهية"!

بمناسبة الخبز، وقتها عوضني عمر بشيء جميل، كان أحيانًا يُمسك يدي ويأخذني معه إلى مخبز الحارة لنُحضر الخبز في الكيس البلاستيكي الشفاف المتعرق ببخاره، كان الخبز يختلف عن خبز جدتي ولكنه كان أيضًا لذيذًا جدًا وطريًا وتحبه الطيور المنهكة في هذه المدينة المغطاة بسماء من حرب في ساحة المنزل عندما نأخذ بقاياه ونطعمها إياه، كانت له رائحة مميزة عندما تفتحه، وكأنك ترى منظر المخبز القديم والرجل الذي يبتسم وهو يخبزه دوما.

هكذا ارتبط بداخلي الأمر، لأن الخباز رسم شعارًا آخرَ في ذاكرتي للقدس، لم أره يومًا إلا وكان مبتسمًا وهو يمد لك الخبز، "كأنه يهديك إياه"، وأمام باب دكانه هناك رجل كبير في السن يضع فوق رأسه الكوفية والعقال(1)1، "وعجوز جميلة ترتدي ثوبًا فلسطينيًا وترمي فوق رأسها منديلًا شفافًا ينسابُ بهدوء على كتفيها بأطرافه المطرزة "غدفة"، ويضعان طاولة خضراء بلاستيكية صغيرة وعليها الشاي وبعض الأرغفة صباحا، كانا والداه، وربما كانا ابتسامته التي لا تفارقه!.

(1)- الكوفية: توضع على الرأس وشعار للفلسطيني بلونيها الأبيض والأسود، والعقال: قطعة سوداء مدورة تستخدم لتثبيت الكوفية، من اللباس التراثي

كان بلا شك الموضوع الأكثر حساسية هو ديني، كانوا جميعًا يُلمِّحون لي به، لكني اخترتُ ديني بنفسي، وكنت أرى أن الإسلام لا يُطفئ ديانة أمي فيّ، بالعكس تماما؛ فالإسلام يتضمنه ويكمله، أنا أؤمن بعيسى وموسى (عليهما السلام) كما أؤمن بالرسول محمد(صلى عالله عليه وسلم) وبجميع الأنبياء الذين مروا على كل الشعوب والأزمان ولم أترك زيارتي مع جدتي إلى الكنيسة عند زيارتها، كنت أُصلي ربما بطريقتي المختلفة عنها ولكن كنت أصلي أنا وهي لربٍ واحدٍ لا تختلف المسارات إليه.

أنا أقرب للإسلام واعتنقته روحانيا قبل الجهر فيه بكافة تصرفاتي، لأني تعرفت عليه وحدي وسألتُ عنه ودخلته بمحض إرادتي، وقادني إلى طرقاته كلّما حاولت تحليله، اخترت الأشمل الذي يضم كلّ الأديان داخله، هكذا كان قراري بيني وبين نفسي. واتخذتُ الاتزان المتسامح، كنت متزنة بأنني أقبل اختلاف غيري ودينه وعرقه ولونه وكلّ شيء يختلف عني ما دام لا يتعدى أو يجور عليّ وعلى اختياري.

لكن هناك شخص تأثرت به بالفعل، هي مُعلمة الكيمياء، كنت أنضم لتجمعها الجميل الأسبوعي بجانب المدرسة في بيتها، بالحديث عن الدين بابتسامتها الجميلة وبأمثلتها الواقعية، لم ترهبنا ولم تخوفنا، كانت تحكي الدين لنا قصصًا، وكانت قوية تعمل، وتقود سيارتها بلا مهابة، وِمن أذكى الذين مروا من النساء عليّ، وكانت تحب الصباح مثلي وتصف رائحة هوائه بطريقة أرى فيها تفاصيله تشرق في وجهها، وتتحمل كلّ ما نسببه لها من عناء بنفس الابتسامة. لقد تعلمت منها ليس فقط الكيماء العلمية، تعلمت "كيمياء الدين" أيضًا، فكنتُ أتعامل مع

الدين بجوهره وأبحث وأقرأ، وقرأتُ سير كثيرة وكانت "ريم" تختبر لغتي بقراءة القرآن لها وشرح بعض الآيات، لم أقرأه كغيري تلقينًا، بل قرأته وبجانبه حاشية كبيرة فيها سبب نزول كلّ آية، ففهمت وسألت وحصلت على الإجابة. وعندما عرفت أيضًا أن اسمي ليس فقط اسم القدس قديما وإنما معناه بيت الله، اتخذتُ من نفسي بيًتا لله، خاصا بي.

مع أن أبي وعائلتي اعتقدوا أنني اتبعته بفضلهم، أو لربما كان واجبًا عليّ أو بسبب فقد أمي ومعيشتي بمجتمعهم، الأمر داخلي كان مختلفًا تمامًا، وصوتُ عمر وهو يقرأُ القرآن على السطح -خصوصا أيام شهر رمضان المبارك قبيل غروب الشمس ونزوله مسرعا ليخبرنا بأن آذان المغرب قد بدأ- كان من الذكريات المقدسة في زاويا روحي وذاكرتي التي لا تُمحى، والوحيد بهذا البيت الذي مارس الدين بحق..

ومن أعظم الأشياء التي اقتنعت فيها أن الدين خلق لكل زمان، هذه الكلمة ساحرة، وخلوده ليس باتباعنا له وبوجوده دائمًا كلّما احتجناه وبعدم فنائه، الأمر أكبر من هذا كلّه، بل بمناسبته لكل الأزمان ومجاراته ليتدخل بأدق تفاصيل حياتنا فيسندها ويصححها أن اتخذناه مرجعًا بيننا وبين أنفسنا من دون وسيط ومن دون اللجوء لغيرنا ليكون وسيطا لنا مع الله، "الله لا يحتاج وساطة".

ولا أحتاج أنا إلا للحظة التي أختلي فيها بنفسي مع الله، أعد نفسي أن أحاول وأن أتعب وأن أمضي وأعرف أن البقية تأتي من عنده ما دمتُ أحاول وأمضي في طريقي إلى منتصف الهدف، وحينها كنت أشعر بالخشوع وبيد الله تطوقني في السجود. .

قرأت في مرة أيضًا أن تحريم شرب الخمر والكثير من الأُمور لم يكن في بداية الدعوة ونشر الدين وتعاليمه وأنها أتت بالتتابع مع الزمن حتى يكون الأمر متدرجا لهم وبالتالي سيقتنعون به وسيمارسونه عن قناعة وليس بإرغام، وهذا هو الذكاء ومعنى الخلود أن تتناسب مع الزمن وبالتدريج، لن يكون الدين يومًا شيئًا مرهقًا أو ليمحُ ما قبله من أديان ليظهر قويًا، والاسلام هكذا لم يمحُ الأديان قبله لكنه كمَّلها، "فإن ظهر لغير معتنقيه غير هذا مما يدور الآن، فالعلة ليست به بل بمن فهموه فهمًا خاطئًا أو لم يكتشفوه بعيدا عن خلفية ثقافية تقاس بنشرات الأخبار"، أو كالذين يحبثون بين السطور دومًا عن أيّة ثغرة ليشيرو لها بالإصبع ويسقطون عليها سوء ظنهم الذي ينعكس كمرآة لهم، فيتهمون الغير بالكفر والتحريف والخروج عن ملتهم وغيرها ويشوهون الإسلام بزوائد ليست له.

الأمر كان خاصًا بي، كان بيني وبين نفسي، حتى مع أمي، أن أقرأ في سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام أن أحد زوجاته كانت تسمى "ماريا"، أيّ كاسم أمي، الأمر جعلني أرفع عينيّ عن الكتاب وأنظر حولي، لا مقارنة ولا تشابه نعم، لكن هذا رسول الرسالة وهذه زوجته باسمها وملتها وسيرتها، فلمَ الفتنة والحرب والقتل والطائفية في زمننا؟ ولذا في كلّ سجود كنت أدعوا لأمي، ولم أشعر في لحظة وأنا على سجادة الصلاة أني أدعو لها ربًّا آخر، الرب واحد، وأنا مقتنعة بكل ما في الدين الذي اخترت وكمَّل دين أمي وإنجيلها.

الفصل الخامس

رقعة الشطرنج

في الحياة تتوزع الأشخاص من حولنا في المربعات
البيضاء والسوداء من رقعة الشطرنج،
كل شخص يختار أيّ لون يريد وأي دور يلعبه
هناك قاعدة فقط في الحياة استثنائية
"انك تستطيع الانتقال من لون إلى اللون الاخر!"

القدس، فلسطين المحتلة

الملكُ في رقعة الشطرنج كان جدي بين كلّ الأشخاص والتسميات لهم حولي، كان يشبهني و أصبحت أقتنع بذلك كلّما كبرت ورأيته صامتا، واحمرار أنفه يذكرني دائمًا باحمرار أنف أبي عندما بكى أمي وتلك العباءة البُنِّية المطرزة الجميلة بخطوط ذهبية رقيقة ينسل بعضها كزغبٍ كانت تزيده وقارا و تلازمه دومًا كرفيق وحدته.

لم أخف منه يومًا أو أعتبره سببَ أيّ شي يحدث في هذا البيت الذي يشبه بيت القصص الذي كنت أقرأ عنها في كتبي، على العكس تمامًا كنت مقتنعة أن جدي كان حزينا على جدتي لأبي وحزنه كان كالمرض المزمن العضال وأنفه المحمر أكبر الأدلة، حتى لو كان لربما ظالما لها أو لم يشاركها هذه المشاعر في حياتها، "أعرف تمامًا أن الوحدة وموت الشريك سيجعل كلّ المشاعر تطفو كالزبد على الماء في الذاكرة، خصوصا كلّما أصابته ذكراها ومشيَ في عظمه إحساس البرودة، أيّ الوحدة".

على العكس تمامًا زوجة عمي السيئة وعمي غير الواضح، وعمتي الضعيفة وأبي المنشغل وفقد جدتي هم السبب، "كنت أرى الأشياء بعين الموت لا الحياة وبذلك ربما تكون نظرتي هي العادلة"، فعندما تفقد ستمتلك هذه الخاصية أن تأملت أو مررت بالذي مررت به أنا، أو حاولت أن تتعلم من خلالي أو خلال غيري، "حاول ألا يصيب طرف روحك بللُ وجعٍ إن كنت تستطيع أن تتعلمه من غيرك".

عمتي بهذا كلّه كانت القصة المظلومة والظالمة بحق نفسها من حيث كم الوجع بداخلها والممزوج بالضعف والهشاشة، اللذان كانا يولدان يوميًا من رحم وجودها، كرد فعل لممارسات زوجة عمي بتهميشها والتعليق المستمر على شكلها ولون بشرتها ولدغتها في بعض الحروف وعدم زواجها، والمحاولات الدنيئة للعب دور الخائفة على مصلحتها أمام تجمع صديقاتها، كأنها تستعرضها لتبحث من خلالهن عن عريس لها وتبدو الطيبة لهن، كان هذا شيئا مقززا وعملية طحن لطموح وقوة عمتي، التي كنت أتعجب وأنا أرى جمالها الذي يشبه أميرات "ديزني" في أفلام الكرتون كما أول مرة رأيتها فيها، لم تكن تفتقر لشيء من مقومات السيدة الجميلة لكنها كانت تفتقر لأن تكون قوية وواثقة، كان يجب عليها ألا تمارس صمت جدي وأبي ولا تتاثر بزوجة عمي ودهائها وأن تشابه اسمها " أميرة".

عمتي هي الإثبات العلمي القاطع أن تقديرك ومعاملتك لنفسك تجبر غيرك على معاملتك، كما تعامل نفسك سيعاملك غيرك معادلة بسيطة جدًا لا تحتاج للشرح، لن يستطيع أحد أن يقدرك دوما، غير هذه التي تسكنك -"نفسك!"-، والآخرين حتمًا سيتبعون انعكاسها عليهم وصوت صداها!

"ريم" وعمتي بهذا كانتا النقيض الوجهان لعملة واحدة، نفس العمر تقريبًا والإحداثيات لكن القدر مختلف باختيارهن، ولم يكن حظا أيضًا بتاتا بنتيجة رمي القطعة وظهور وجه إحداهن لتربح، ريم سواء كانت الوجه أو الظهر كانت ستلمع وتفوز في حياتها لأنها فقط تحاول، حتى بوفاة والدها ووضعها المادي السيء وعملها بجانب دراستها ومرض والدتها ومساندتها لإخوتها، كلُّ هذا لم

يصنع منها إلا فتاة في قمة القوة والرضا، "فالرضا، لا تدخل السعادة إلى عقب بيتك دونه، ستبقى على العتبة ولن تدخل".

لكني أعترف أنني واجهت وجع عمتي وتأثرت به ومعها أيضًا، كنت أراها تحتضر في السن القاتل لها في آخر محطة للفتاة في المجتمع العربي قبل أن تركن على الرف العالي للاحتياط وتنتظر حظ يسقط من السماء لتعود لمضمار الحياة الطبيعي أو المسمى هكذا تبعًا للعادات والتقاليد ويكون أكبر قرار لها هل ستطبخ اليوم الفاصوليا أو الخضار في الفرن، أو أن تقرر هل ستضع الأريكة المزدوجة أم ذات الثلاث مقاعد في منتصف الغرفة؟، رغم أنني لا ألوم من يتخذ هذا سقف أحلامه ويغدو سعيدًا، فلربما هذه سعادة إحداهن، لكنني ألوم من يقوم بوأدِ طموحهن، حتى لو انتهى زمن الوأد الجسدي فهناك أشكال وأطياف منه تتجلى في مجتمعاتنا. وأمتعض أكثر وأكثر من التي اختارات وبعدها أخذت تلوم العمر والمجتمع والحظ والعين واتخذت كلّ الأشياء كشماعة تعلق عليها فقط هذا كلّه لترتاح، أو أصبحت تمارس عقد النقص في أطفالها أو في أيّ أنثى متحركة حولها نحو طموح بنظرها أنه: "تمرد"!. الطموح بالتأكيد لا يتوقف فقط عند سقف جامعة أو عمل، ربما يكون سقف منزل سعيد دافئ أجملها. لكن لأنك اخترتِ السقف فعليكِ أن تتحملي وعليكِ أن ترضي، وإن شغفتي لامتلاك طموحٍ آخرَ بعدما اكتشفتيه في نفسك، عليكِ أن تبني فوق السقف القديم طابقًا أعلى سقفًا لطموحٍ آخر، أو أن تبني سقفًا بجانبه. لكن لا تهدمي أو تلغي سقفك، خاصة وإن كان جيدًا!، لنتفق أن عليكِ أن تكوني قويةً بذكاءٍ وبحقٍ، لتُفرِّقي بين أنك

تُريدين أن تهدمي شيئا سيئًا، أو بالأحرى ما ظننتِه سقفًا لطموحكِ فكان من تحته من كانوا سببًا لدماره ودمارك، كشريك سيء مثلًا!. بكل الأحوال أتمنى ألا تهدمي الأسقف في هذه العلاقات، وأن تفتحي الباب فقط وتهجريها! فسبب فشل أيّ علاقة هم الشخصان، لا يتحمل الذنب فيها واحد منكما وحده، سواء بتصرفاتك فيها أو بتحملك حتى وصلتِ إلى أسوأ مستوى وربما أسوأ نسخة منك، التخلي طموحٌ كافٍ هنا!

أما عمتي فهدمت سقفها وجدارنها وأخذت تحفر حفرتها، ماتت على قيد الحياة في تلك الفترة، اختارت أن تغمس كلّ جسدها في التراب وتبقي رأسها تراقب الحياة ولا تتحرك، استسلمت فقط، حتى النعام كان أذكى، نظنه غبيًا وخجولا لدرجة أن يغمس رأسه في التراب عندما يقترب أحدهم، ولا نعرف أنه يستخدم أذكى خاصية ليسمع عدوه أو القادمين باتجاهه من خلال أن يدفن رأسه بالتراب فيسمع مصدر الصوت مضاعفا أكثر.!

لأكون منصفةً أنا أعرف تمامًا معنى الفقد لشيء والضعف، وأنا أيضًا ردمت نفسي بالصمت لفترة وكنت أشارك الحياة روحا مبتلة لا تليق بها وتثقل حركتي وابتسامتي وعالمي، لكني خسرتها في محطة عمري الأولى وكان لي بهذا ربما فرصة أن أستعيدها خلال ما مررت به ومراقبتي لجسدي يكبر وتغير ملامحي ونمو شعري الذي طال وأستطيع أن أصنع به جدائلي من جديد، فأدركتُ "أن الوجع فعلا يبدأ عظيمًا ويستمرُ عظيمًا لكن مُعتقًا كنبيذ إن شربته غدوت ضعيفًا

وهشًّا وفقدت السيطرة، وإذا تركته مُعتقًا بزجاجة لا تقربه سيصبح أثمن واغلى، وسيذكرك ألا تشربه ".

أما هي، فلا شيء ينمو فيها غير شعرها الذي أيضًا ينمو ويتساقط حتى ابتسامتها ما عدتُ ألمحُها لقد أصابها نوع يسمى "زهايمر الابتسامة" ومارست الخرف والحجر على نفسها مبكرًا جدًا، وتآكلت أظافرها حتى أصبحت ضعيفة لا تقوى على محاولة أن تحفر أثرها في هذه الحياة، في نظري كانت كأنها زهرة تساقطت بتلاتها واغْمَقَّ لونُها وكُسر ساقُها فانحنتْ، كانت من اختارتْ أن تنتقلَ من المربعِ الأبيضِ إلى الأسودِ مجازًا، ولا تكتفي بهذا، فقد وقعت في فخ أن تفقد حجرها في اللعبة وأن تستسلم!

أنا لا أحاول أن أنقل قصص من حولي ولحظات ضعفهم وعيوبهم بفعل القصة والحبكة، أنا أحاول فقط أن أُعطي النقيض للأمر وأرسم أكثر من صورة لهم لو اتخذوها لأصبحوا أفضل، ورغم أنني لا أعرف إن كان الأمر سهلًا كما الحديث والكتابة، أو لو كنت مكانها ماذا كان حدث لي، ولكني أعرف أنني في كلّ الاحوال يجب أن أحاول وأن الله وضع كلّ شخص فينا بكربة على قدر اتساع نفسه لها، لن يكلف الله نفسًا أكثر من طاقتها.

ولأن الشيء بالشيء يذكر كما يقال، فإنني أرى " أن الحياة هي الحرب الكبيرة والحقيقية، الحروب الصغيرة لم تكون إلا محاولة زائفة لتقليد حرب الحياة، وبالفعل البشري تحول مفهومها للقتل وأن ألغيك لأني أريد أن أكون أقوى، نحن حتى نستنسخ الشجر الحقيقي لنحوله لأشكال لا تشبهه، صناعية لا روح فيها إلا

أن تعطينا المنظر والإحساس فقط، قادرين على تجميد وتحويل كلّ ما في هذه الحياة لنسخ سيئة".

الأمر هذا يذكرني بـ"وليام غاي"، وكتابه "أحجار على رقعة الشطرنج"، وأعرف أنني سأجر ذيل حروبنا إلى حديثي، الأمر أصبح جزءًا لا يتجزأ وإسقاطه على كلّ شيء في حياتنا أصبح عملية عصبية لا إرادية في أجسادنا.

وليام غاي في كتابه استند من جهة نظره إلى الكثير من الوثائق والشهود ليخرج لنا أسرار ما يحدث في العالم وخصوصا الناحية الحربية والسياسية، ورغم أن هذا الكتاب أحدث ضجة كبيرة ليس فقط بتناوله للعوالم الخفية بين الدول، ومعايشته للحرب العالمية الاولى والثانية كضابط بحري كندي، وبعيدًا عن كلّ ما قدم فيه من صحةٍ وخطأ ومن نظرية المؤامرة إلا أنه فعلا اختار التعبير الصحيح، أننا احجار في رقعة شطرنج، ولو لاحظنا سنرى أننا نمر بنفس الخطوات في عالمنا العربي تحديدا، وبسيناريو واحد، تثار فيه الشبهات حول حاكم ما فجأة وتصبح الناس تكرهه بشكل مباشر ومعلن، وتعطى الشعوب وسيلة لتغييره بأي طريقة كانت من انتخابات أو حتى ثورة، ومن ثم تقسم الناس إلى فئتين وأحيانا إلى فئات متناحرة تكره بعضها البعض بطريقة شرسة، وتتصيد بعضها البعض كأن الأمر تحول" لشريعة الغاب". ورغم أن الكاتب توفي في عام **1959** واغتيل كما نقل عن هذا، إلا أن ما ذكره هذا يحدث فعلا الآن، ومع مرور الوقت نراه يزور بلدًا تلو الآخر.

وأنا سمعت عن الحرب كثيرًا سواء من جدتي التي كانت تخبرني عنها في ألمانيا كلّما كبرت وزرتها وسالت أو قرأت في الكتب الألمانية وطلبت توضيحها، خصوصا للمراحل التي مرت فيها في الحرب العالمية الثانية ونهوضها من تحت الرماد بالمعنى الحرفي، وبمتلازمة عقدة الذنب الغريبة التي تلتصق بهذا البلد بسبب هلتر كما صورت الفكرة والقصة إلى زمننا هذا، الشاب الذي كان يريد أن يكون رسامًا، فرُفض مرتين من المعهد المتقدم له، فحاول أن يرسم بعد ذلك عشوائيا، إلى أن وقع في السياسة، رسام يتحول لسبب تغير العالم بشكل يقتل فيه أشخاص يوميًا بسببه إلى الآن، الاثبات القاطع أن الشخص قد ينتقل من اللون الأبيض للأسود مجازا وحقيقة.

من المواقف التي تخص حرب ألمانيا، عندما قرأتها أثرت فيّ بشكل كبير هي حادثة السيدة الألمانية "هيلدغارت تاينرت"، عندما كتبت في مذكرة زوجها مدرس اللغة اللاتينية، "الحرب انتهت، البنادق صمتت. لم تبق إلا لحظات قليلة، وبعدها ينتهي كلّ شي للأبد"،وما كان من زوجها يوهانس تاينرت إلا أن أطلق عليها النار ثم انتحر في بيتهما، عندما قراتُ هذا، أحسستُ بدرجة اليأس والألم الذي وصلوا إليه حينها، كانت هذه القصة الفردية صورة كاملة تختصر الوضع وقتها، لكن ألمانيا تخطت هذا، ولو عشتَ فيها يومًا بعد يوم ستكتشف أن الضعيف فيها ليس له مكان، يجب أن تكون قوي، والقوة ليست كما نتصورها كعرب، القوة أن تصنع نفسك بنفسك، أن تتبع مبادئك التي اخترتها، ولا تكترث إلا بما تحب وتريد، ضمن حدود قانون يحكم الجميع كلّهم كسواسية، وكنت أيضًا ستلاحظ

أن المعارضة جزء من منظومة الحكم، وهذا الأمر الصحي والطبيعي، ليكون التعبير عن الرفض والعكس بشكل قانوني وتحت قبة البرلمان وأمام الرئيس نفسه، ويكفي أن أرى "ميركل" تجلس وتهاجم مباشرة من متحدث معارض بكل اتزان، وأرقبها عاما بعد عام تتحول من عالمة الفيزياء الكيميائية الذكية إلى امرأة حديدية ولتعطتني التفسير لمَ استطاع هذا الشعب أن ينجو!!

يبدو أن السياسة أيضًا تتبع لفكرتي ككيمياء الحب والدين والحياة، فأقتنع أنها مارست كيميائها في السياسة بلمسة أنثى، وأنا فعلا أميل إليها أكثر لأنها سيدة وتعزز حقوق المرأة في عالم ذكوري يولدون فيه لنا الحروب من رحم تجبرهم ومع كلّ هذا أنا مازلت أمقت السياسة وأعرف أنها دفعت عمرها كاملا فيها، فأعود أمقت السياسية ألف مرة بعدما أقدرها وأرفع كلّ القبعات لها.

من المقولات التي قرأتها واقتنعت بها في الجهة المقابلة لنصفي الآخر وما يحدث فيه في القدس وهي على شكل سؤال طرح: "لماذا فشلنا في تخطي الهزيمة، ونجحت دول أخرى كاليابان وألمانيا في النهوض؟"

وكان الجواب عليه:

" إن اعتبار أن ما مرَّ على العرب في **1967** غير مسبوق في التاريخ أوضح تبرير للفشل العربي في التعامل مع الهزيمة".

وفعلا نحن نؤمن أننا المقصودون والمستهدفون بنظرية المؤامرة فقط، رغم أنه على مر العصور كانت هنا حروب دامية وأمم تُستعبد بشكل حيواني، لكن لربما الإعلام فقط لم يكن موجودًا. ورغم هذا لا بد أن أتذكر دومًا بلدًا عربيًا، كلّما

قرأت عنه أو قابلت شخصًا منه شممت رائحة تشبه القدس فيهم، تذكرت الجزائر، بلد المليون شهيد وأمل، البلد الذي أتمنى لو نحذو حذوه يومًا ونمارس التضحية بشكل يوصلنا للهدف لا للبحث عن ما هو الهدف"، وأن تكون ثوراتنا التي قتلتنا بدل أن تحينا كثورة الجزائر"، إنه ليُلفتني جدًا نشيدهم الوطني، حيث أنهم لم يتخلوا فيه عن المقطع الذي يُذكر فيه احتلال فرنسا لهم رغم طلب الأخيرة أن يُحذف ذلك بعد استقلالهم، ولكن إجابتها كانت: "لا، حتى تعترفوا بما صنعتم بنا "، إنهم القوة في الحق والتمسك بدرس لا يلدغهم مرة أخرى، فالمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، وسأراها دومًا البخور الذي أشتم منه رائحة جميلة للوطن العربي المليء برائحة بالبارود!

ومن ناحيتي الخاصة، أنا كنت من الذين عاصروا الحرب بذورتها أيضًا، أنا كنت من جيل الانتفاضة الثانية، وكان الاختبار قويا ومطبوعًا في داخلي، وكنت أترجمه دومًا لجدتي كلّما التقيتُها، كنتُ تلفازَها ومذيعتَها والمراسلة الحيَّة لها، ولم أكذب وأحول وأعكس الأدوار كما يفعل الإعلام! فأنا تعلمت الحرب وعايشت تفاصيلها كلّ يوم وأنا في القدس، في الطرق في المدرسة وعلى شاشات التلفاز وفي أحاديث الناس اليومية والصباحية بعد صباح الخير مباشرة، ولكن الحرب أصابتني في منتصف قلبي، والتفَّتْ حول الشريان الأبهري وأخذت تضغط كلّما زارتني تلك الذكريات، فأحس بخدر يمتد في جسدي.

الفصل السادس

عمر

وجهٌ يتقسَّمُ فيه ذقنه إلى قسمين من الجمالِ، ويختصر في ملامحِهِ وعلى حدودِ يديه، وطني

الطفل الذي أهداني كيس غزل البنات فرفضته، الطفل الذي احتاج أن يهمس لنفسه قليلًا باسمي ليتأكد منه ومن ثم نادى بأعلى صوت "إيلياء"، أول من رأيته يلف الكوفية على وجهٍ ذي ذقن منقسم لنصفين من غمازة الجمال.

عمر كان رقمًا يبث على شاشة الانتفاضة، رأيته وهو يكبر ويدافع عني ويراقب على سطح المنزل القمر ويطلب أن ينام في الليالي الصيفية هناك، من كان أكثرهم جلوسًا مع جدي وصمتًا معه، سطله الأسود ذو المقبض الحديدي الرفيع المليء بعناقيدِ العنب وعلى وجههِ حبات التين، ويديه وهي تفتح "صنبور الماء الأخضر وتغسل الحبات وتوزعها علينا، تحفر في قلبي ينابيع ذكراه.

كان يفتح لي تينتي دومًا وبسببه تعلمت أن آكلها بقشرها كما هي، وأن أحب العنب الأسود القاسي كما يحبه، وأن أراقبه وهو يضع الحِصْرِم في العبوات الشفافة " كتلميذة مغرمة بأُستاذها وفي تفاصيل الوطن بين يديه التي أخذت تكبر كلّ عام. "

رفيقي الصغير الكبير الذي رأيتُ فيه امتدادَ كبرياءِ وصمتِ جدي، كان صدره مكشوفًا للحياة، يحب أن يلتحف السماء للنوم، ولم تُخطئ الرصاصة بهذا فاستقرت في صدره. كان وجهه يلتف بالكوفية وسط حشد الناس، ويظهر ذقنه وفمه مبتسمًا، كان باردا جدا، لم أقدم له في وداعه إلا وردا طفى على وجهه وأنا ارميه مع سارة من الشرفة ويخرج هو محمولا من نفس البوابة التي فتحها لي. غادرني ولم يغادر الحياة فقط، جمد كلّ أحاسيسي وجعلني أدرك معنى الحرب

بصورة مختلفة تمامًا، الحرب تصبح أبشع عندما تمسُّ من نحب، نتعاطف مع كلّ ما يحدث ونساند وجع الجميع"، ولكن عندما تدق الحرب بابنا يصبح الأمر شخصيا، ويصبح الثأر ليس بثأر وطن فقط وإنما ثأر سلام يقتل فينا أيّ يد تمتد نحوه."

اشتقت له، وأذكر كم ضحكت على شاربه الذي أبى أن يطول أكثر وعلى ذقنه الذي يحوي فراغات، أول من أهداني شيء في القدس أول من فتح لي بوابة البيت، واقتحم عقاباتي ودروسي ومغامراتي، من حفرنا أنا وهو لصندوق تحت الشجرة الكبيرة ووضعنا فيها الكرات الزجاجية التي كنا نفوز بها بعد أن نغلب الأطفال الآخرين، ومن كان يضحي بجواربه دومًا لعمل كرة لنلعب اللعبة التقليدية (سبع حجار) من صنع لي بكل بساطة طفولتي وكان الروح التي تطلق الفرح والطاقة. كانت سارة تخبره أنني أبدو أخته الصغيرة المدللة لا هي، ورغم أن علاقتي بها كانت جميلة وكنا نخيط دومًا ملابس الدمى للعبنا إلا أنني أجزم بلحظات كثيرة انها كانت تشعر بالغيرة مني بسببه، وتصر دومًا على أن تكون في فريقنا، وكم تعرضنا للخسارة بسببها، وكنت أضحك عندما تنعتني بحسن الصبي.

عمر لا يشبه أُمَّه ولا أباه، لا يشبه أيَّ شيءٍ غير حجر الأبيض الجميل والزهر الذي يغطي الشرفة وبعض كدمات الحياة كما الحجر فيه، لم يكن ذكيا في المدرسة وكان يُؤنَّبُ دوما، لكنه كان ماهرًا بكرة القدم أنا إلى الآن متعلقة وأعرف كلّ شيء عن ملعب الكرة كأنني شاب لا فتاة بسببه، كنا نشجع نفس الفرق ونختلف فقط بالبلدان أو نتشاجر بالمعنى الحرفي والرهانات موجودة دائمًا

وينفذها الخاسر، وكان الغشاش الصغير في لعبة الورق والحاكم جلاد، كان الأجمل على الإطلاق كان طفولتي ومراهقتي.

هو من "من خلال حدود يديه التي راقبتها تكبر عكس حدود الوطن التي تصغر، تعلمت كيف تزرع وتحصد أرض وطني، كيف يكشف أبناؤها الصادقون صدورهم لها ويقفون أمام وابل من النار من دون أيّ خوف، من كان يختصر تاريخ القضية والموت والحياة ومعاهدات كاذبة وآمال مزيفة في خيمة من كرمه الذي كان يشاركه مع جدي وتذكرني بخيام اللاجئين وخيبة تدق جدار الوطن مسمارا وراء الاخر." واجهت بسببه وجعًا كنت قبله، يبدو أنني أُمثل معرفته وأنني جزءٌ منه، واجهتُ وجع الوطن والموت ورائحته التي تساوي رائحة بارود بنادقهم بل أقوى.

لمحت في موكبه ألوان أعلام كثيرة كنت أود لو أنزل وأنتزعها، وأقول هو لا ينتمي لشيء ولا لحزب ولا لأي أمر من هذا كلّه، هو ينتمي فقط لفلسطين، فكُفُّوا واتركوه فقط مكفنًا به ولا تتاجرو بالموت، كُفُّوا فقط أن تنعتوا متقدما لابنة أحدكم بأنه لاجئ، وكُفُّوا فقط أن تنفروا من المخيمات، وسيكون سعيدًا وينتمي لكم بدون علم حزب "

أن تستشهد فكرة كبيرة في روحي، أن تذهب بسبب أرض ستدفن فيها وإليها ومنها، كنت أقول لنفسي إن كان هذا الخير له فليكن، وهو أصلا يشبه هذا الشرف العظيم وبياض روحه تشبهه يديه البيضاء بسبب الأحجار عندما كان يحاول أن يدافع، وكيف تغيب من روحي لحظات انتظاره لي بعد قضائي ساعات

تحت درج المدرسة خوفا من القنابل المسيلة للدموع وطريقنا سويا بخير للمنزل، وتغيب ابتسامة ثغره، كنت أراقب مشيته المغرورة وهو يمسك بيدي كما العادة بقوة، "الذين يحبون أن يمسكوا الأيدي بقوة يخافون الفقد".

والآن كلّما صادفت أكياس غزل البنات في الشارع شممتُ رائحة روحه في أرجاء المكان، كلّ شيء كان يذكرني به كوفيته التي ما زالت رائحته فيها، ابتسامته، نطق اسمي، غضبه عندما أُسافر لجدتي، خصوصا بعدما كبرت، أسئلته الكثيرة عندما أعود، ضحكته الخبيثة بهداياه مني، ومناقشاته العقيمة مع سارة ومساحيق تجميلها التي كان تقلد أمها بها رغم صغر سنها، كلّها افتقدها، وكلما تذكرتها، هناك حجر في زاوية ثباتي أراه يسقط مع غيابه، حتى العنب والتين اختلف طعمهما وبدأ محصولهما ينقص بعدما غاب، كان رجلي الأول وطفلي الأول ورفيقي الشقي وبصمة كبرياءٍ لا تغادرني وأول اكتشافٍ لغمازة الجمال!

لروحك عمر خيوط بيضاء وسوداء انسجها حبا وألفها بها ككوفيتك، إليك يا من علمتني الوطن وكنت تلميذتك، وكدت يا معلمي أن تصير رسولا.

ربما بعدما فقدته أحسست تجاهه بمشاعر الحب العذري أو ربما كان صديقي الأفضل، والصديق يصبح أعظم إن تحول لحبيب أو "عندما نفقد صديقنا الوحيد نحظى بخانة فارغة لا يملأ قيمتها غيره ويصبح المكان لغيره صعب المنال، والمقارنة ستكون حاضرة دومًا وظالمة". فمن يمتلك صديق وفى بعهده امتلك نعمة يفقدها الكثيرون ويملكها قلة القلة.

بسبب عمر أستطيعُ أن أشتم رائحة روح الرجل الحقيقة، لقد علمني كيف أحب، فإذا أحببت رجلا استطعتُ أن أتملكه بكل تفاصيله وأن أصفها وكأنني قد كنتُ الطبيبة الخاصة بأمه وراقبت تفاصيل نموه من خلال جهاز السونار ومعانتها بسببه وولادته، وكنت طبيبة الأطفال خاصته وطبيبة العائلة والمعلمة في مدرسته وجارته أيّ حبه الاول، والصفعة الأولى له من فتاة وأول شعرة تسقط على كتفه ومن حددت له حدود ذقنه وفرضت عليه ألا يتعداها، وأول من أخذ مقاس كتفيه واختار له ملابسه غير أمه.

لكني أيضًا لا أبوح، الصمت هو طبع لم أبحث عنه، قد تكون معي تربى معي أنا والصمت تربينا ولغاتي التي وصلت إلى الرقم خمسة لا تسعفني في أحلك ظلمات حاجتي إليها في كثير من الأحيان عندما أحتاج أن أعبر، وأعرف أنه مع أن عضلة اللسان هي أقوى عضلة في الإنسان لكنها عندي ضعيفة، وعضلة يدي في الكتابة أقوى منها بالف مرة، ربما هو ضعف وربما هو أنا ولكني أحيانًا أختنق لأني لا أعرف كيف أعبر.

رأيت أمه حزينة، كانت بالطبع أضعف لحظاتها وتحولت لشيءٍ أليف لفترة، تنوح فقدها بنواح لبق وسط مجتمعها، كانت محط انتباه الجميع كما تحب، ربما ظلمتها، لا أعرف وبالطبع كانت فاقدة، لكني وجدت فقدي له أعظم وأصدق كان لا يشبهها وهي تعرف هذا، مع أنني لا أُؤمن أن الشخص سيء بفطرته لكنه سيء باختياره، وإن كانت التذعتْ بنارِ الفقدِ لِعُمَرٍ، فلا شيء سيغفر لها بعد الآن في

نظري، الحياة أهدتها درسا لو كانت حجرا لذاب، لذا لا لتقبلي ولا لصمتي، سأعترض وأرفض ولن ألعب أدوارًا معها، انتهى الأمر (فركش تصوير)!

منذ تلك اللحظة، تغيرت قناعتي وبت أعرف بأن التجاهل والصمت لن يمنعا شيئًا من أن يُكسر، أو شخصًا من أن يذهب، أو حتى حُلمًا من أن يَختفي، ولن يمنعا العقابَ أيضًا، وأنا حظيت بكل هذا رغم أنني كنت احتمي بالصمت. كنت أحتاج فقط أن أثق بنفسي وأردم وجعي وأحاول التغاضي عن روحي المبللة بالفقد وأمضي وامضي إلى أين لا أدري وأن أُحدث انقلابي.

موت جدي كان آخر حصاد للعنب والتين وكان أكبر دليل لاكتشاف أن كدمات الحجر الأبيض صارت أغمق وأغمق، وأنه لم يكن سببًا في قسوة البيت، فبعده زاد البيت ظلامًا وبرودًا، وأن الموت شبحٌ كبير لمن هو على قيد الحياة حولهم و ليس للذين يغادرونه. كان حزني هذه المرة ناضجًا بعيدًا عن تذكر التفاصيل كلّها كما أمي وعمر، كنت مستعدة له، فشرفة البيت وكرسيه المعتاد غاب عنها جدي ثلاثة أشهر يرقد في سريره بصمته، لكن هل جربت أن تتوقف عيناك عن التحرك وتتثبت في نقطة واحدة فيصيبهما الجفاف وفجأة يبدأ منسوب الماء يرتفع أكثر وأكثر وتصبح الرؤية لديك كأنك تقف على فوهة جبل يطوقه الضباب ويغطيه الثلج؟، هذا أصعب أنواع البكاء، إنه بكاء الكبرياء، وهكذا بكى جدي يوم فقد عمر، ومن يومها لوقت وداعه كنت أرى أن ظهره ينحني أكثر وأكثر للأمام تحت عباءته.

رغم هذا كلّه ولا أدري لماذا، ربما كانت الجرعات قوية وفوق الإشباع لي، وأوصلتني لذروة اختبار الموت والإحساس به، فكان هناك عارض جانبي، حيث أصبحت بذلك فكرة الحياة مغرية لي أكثر فأكثر، كأنني تعلمت أن الحياة فعلا كقطاري الذي يجب أن أركبه وسأصل لاشك للمحطة الاخيرة، سواء صعدت إليه بنفسي أو أن جسدي حُمل لمحطته الأبدية، لذلك كان اختياري أن أركبه بنفسي، وأن أنزل أيضًا في محطات كثيرة أختبرها وأختبر معنى الحياة فيها، في النهاية جميعنا بلا استثناء سنموت ونصل للنهاية حيث يتوقف القطار ولا ندري في أيّ محطة ستكون بطاقة السفر قد انتهت.

صرتُ في مرحلة الثانوية، وباتت مسافة الحياة تقصر أمامي، تمامًا كما "التيلومير" وهو الجزء في الحامض النووي الذي كلّما قصرت مسافته، أصبحت علامات السن تظهر علينا أكثر، وإصلاح الأخطاء فيه والتجديد أقل للخلايا، وبالتالي الوصول للموت، لذا كان عليّ أن أتعدى كلّ هذا قبل أن أصل إلى مرحلة تقصر فيها فرصتي لأن أعيش كما أريد، وأن أتبع أيّ فرح حولي بعد كم الفقد والروح التي صغرت بفقدان أطراف منها.

"فمن منّا لا ينتظر بائع الفرح
ويقف على الباب منتظراً أن يَمر
يتعلق به كما يتعلق الطفل برداءِ أُمِّه وسط الزحام"

الفصل السابع

أنصافُ أرواح

حَدثني عَن امرأة قَـوية ذات حُلم،
أُحدثك عَن قَوافل مِن الجياد الـعَربية تَغزوا صَـحراء،
تَنصب حَياة، وَتحضر لها الماء.
وحَدثني عن امرأة ضَـعيفة مُطيعة للظُلم،
أُحدثك عَن عُـمر كـامل مِن الحَرب البـاردة

القدس، فلسطين المحتلة

التحول الجذري، كان عمتي، تحولها أعطاني بُعدًا آخر للحياة، كانت المفاجاة لي والضربة بعرض حائط قناعاتي من جديد، ودرس من نوع آخر ورقصة روح لم تدغدغني قبلا!

كانت في تلك الفترة قد بدأت عملها في مؤسسة تدعم ذوي الاحتياجات الخاصة، وكانت شغوفة جدًا بالعمل، واعتبرتْه كما أنا إضافة جديدة لحياتها بعد كم الخيبات في نفسها والفقد في هذا البيت، هذا العمل لا أبالغ أن قلت أنه وهبها عمرا وحياةً أكبر من التي قد تحلم بها، ومن خلال مشاركة أيامها مع مجموعة أشخاص وُصفوا بالأقل قدرة على الحياة، فكانوا من فكّوا العقدة في حبكة قصتها، وأزاحو التراب التي كانت تدفن به نفسها.

بعد أسبوعين من العمل فقط ومع تحسن علاقتي بها خلال الفترة الأخيرة، وازدياد دعمها لي في قرب فترة امتحاناتي، بدأت ألحظ بريقا في عينيها، لا أدري فعلا ما سرُّه!، بريقٌ بحالة السعادة والسلام الداخلي للأشخاص!!.

وكنتُ قد لاحظت أيضًا أنه قد زار وجنتيها بداية شفق وغسق أحمر وهالة ضوء حولها لم تكن قط قبلا، وأصبحت تتحدث كثيرًا وبسرعة كبيرة وعن كلّ شيء في آن واحد، وتفضل الألوان في لباسها عن الألوان الترابية المعتادة، وتجلس أمام دراما زوجة عمتي كأنها لا تسمع شيئًا وأحيانا تبتسم فتشتعل الأخيرة وتتركها وهي تتمتم لفسها.

مضت أشهر على هذا الحال من الشغف وتورد الوجه والابتسامة والتجاهل لزوجة عمي يتزايد، وشهيتها المفتوحة على الطاولة التي أثرت على شهيتي أيضًا، والحديث الذي بدأت تشارك به وصوتها وهي تضحك ورائحة عطرها كلّ هذا أخذ يمهد إلى شيء قادم إلى هذا البيت أو لها على الأقل، في حديث وحيد غير مباشر مني للسؤال عمَّا يجري:

- أعتقد أنك تعيشين شيئا جميلًا في هذا المكان وأنا سعيدة بشغفك"

- وأنا سعيدة أيضًا، لم أكن يومًا سعيدة وواثقة بنفسي كهذه الأيام

-أتمنى أن تبقي دومًا سعيدة، لا أقصد أن أقدم نصائح، لكن السعادة نحن من نستطيع أن نصنعها والأصعب أن نحاول أن نحافظ عليها

- وأنا أريد من كلّ قلبي أن أحافظ عليها، يكفني ما مررت به، بعد أبي يجب أن أكون قوية. يبدو أن الفقد قادرٌ على أن يعيدنا إلى الحياة، وهي كذلك، كنت فعلا أشتمُ رائحة روح جميلة مليئة بالحياة منها وكنت أراقب هالة الضوء تكبر حولها وتشع سعادة وطاقة إيجابية وأصبح وجودها في غرفتي أو حولي إيجابيا على غير عادتها، وخصوصا أنها بدأت تهتم بالكتب وتستعير مني الكثير وقامت بزيارة مكتبة البلدية وعمل اشتراك وكانت تسألني دائمًا عن أشياء وتطلب رأيي حتى بملابسها وتستخدم أشيائي وبالطبع خبرة سارة في مساحيق التجميل.

شهر آيار بدأ وفيه كان القرار الذي هزَّ جمود البيت وأصاب قناعتي في المنتصف فاهتزت هي أيضًا أذكر هذا اليوم جيدًا بكل تفاصيله وتحولاتي فيه، كان يوم الأربعاء عطلة عيد العمال والمفارقة أنني رأيت أصحاب العيد يعملون في المبنى

المطل على بيتنا لإنشاء بنايات شاهقة بدأت تطلّ بظلال بشعة وتخيف ساحات المنزل وأماكن اللعب لنا قديما. الجميع كان في المنزل، ومع انتهاء "نانا خديجة" من إعداد سفرة الطعام، وتجمع الجميع ممن بقوا في هذا البيت، كان ارتطام الأشياء الحادة ببعضها أو بالأطباق على المائدة بشكل رتيب وبلا روح مشتركة الصوت الوحيد عند تناولنا للطعام يومها، وفجأة قالت عمتي بعدما سعلت:

-أريد أن أخبركم بقرار مهم

الجميع رفع رأسه بانتظار سماع ما هو ثم استطردت بثبات:

- سأتزوج.

نظرنا جميعا بالتتابع لبعضنا، زوجة عمتي كانت ابتسامتها الخفيفة وبراكين الفرح التي تفور داخلها وتطلق شياطينها واضحة الهدف والمقصد لي، و عمي أُجزم أن قلبه قد ارتاح، فهناك مقامرة جديدة على حصة أكبر من التركة، استكمالا للأشهر الماضية من العراك على الورثة، أما أبي فضمَّ يديه بعدما قبضهما على بعضهما ووصلا لتحت أنفه وتنفس بعدما بلع ما يأكل:

- هل هو شخص في المركز؟

تنفست عمتي بعمق وشدت أنفها بضهم شفتيها للداخل ورفعت رأسها:

-نعم.

يرفع نظَّارته بإصبعه باستمرار:

- وهل هو بعمرك؟، لم أقصد "وهو يحاول أن يبحث عن كلّمات ليبرر قصده" لكنها قاطعته :

- نعم

- ولم يسبق له الزواج للآن؟!، "قالها أبي الذي أعتقد أن أسوأ ما كان سيسمعه بنظرته أن يكون متزوجا أو مطلقاً، أو أكبر منها بكثير أو ربما أصغر منها."

-نعم، ولكنه لا يعمل معي.

- لم أفهم، ماذا إذًا؟ ألم تقولي في المركز؟

- إنه ... إنه .... إنه من النزلاء، مُقعدٌ هناك.

ارتطمت ملعقتي بجدار طبقي ووقعت من يدي في الحساء وتناثر جزء منه على الطاولة فأخذت "نانا خديجة" تنظفه وهي تلتفت إلى عمتي من دون تركيز، لم يكن رد فعلي وصدمتي كما حال صدمتهم هم، أبدًا، كانت صدمتي من نوع آخر، كنت أود لو أذهب وأُقبّلها عشرات المرات لأقول للحياة: "ها هي ستعيش بروحها المقعدة مع روحٍ أنا أجزم أنها كاملة لكنها بجسد مقعد فقط، هذا اليوم كان الوقود الذي احتجته لعمري القادم لمرحلتي القادمة". كنت فخورة بها لدرجة أني كنتُ أريدُ أن أصرخ في وجوههم أن "ما بكم؟ ما بكم إنها قوية؟، امرأة قوية، لقد نجت من فخ الحياة والموت على قيدها، وكنت أود لو أن أطلب من "نانا خديجة" أن تطلق زغرودة، لا، أنا التي يجب أن تفعل أنا، لقد صدقت كلّ توقعاتي وأوضحت لي ما كنت أشتمه منها، إنها القوة والخيار والحب والسعادة واكتمال من نوع آخر!

-هل لي أن أتحدث معك؟، أكملي طعامك واتبعيني إلى غرفتي. "قال ذلك أبي وهو يرمي بمنديل الطعام ويترك كرسيه".

- حسنا أخي.

- عمتي عمتي، كوني قوية

" قلت هذا لها بعدما أمسكتها من يديها وهي تمضي إلى الأعلى من جانبي وشددت على يدها كثيرًا "، فابتسمت لي وصعدت إلى أعلى، كنت أراقبها وأُصلي في داخلي أن لا تفقد قوتها وأن تستثمر كلّ اللحظات التي أعادتها للحياة في الفترة الأخيرة في لحظة المواجهة مع أبي.

كالعادة تحدثت الطاقة السوداء:

- لماذا لم تصعد معهم؟ أم أنه لا رأي لك؟. فرد عمي بصوته غير المفهوم:

- أنا ليس لدي مشكلة، الموضوع بيدها.

- وأنا أرى أنها وصلت إلى سن لا مشكل أن تتزوج فيه مقعدا وستكسب به ثواب العناية به.

بعدما سمعت جملتها الأخيرة وحديثهما، ماذا أفعل أكثر من أترك علامة على الطاولة بالسكينة التي كنت أُمسكها وأنا أستمع لهذا الحديث، لا شيء، لم أفعل شيئًا ولم أتدخل أو أُعقِّب على كلامهما، ولم أترك لهما الفرصة لإفساد رائحة القوة التي تفوح في البيت، عمي في البداية والنهاية وافق أليس هناك أجمل من مقعد لن ينجب بنظره؟ هذه إضافة إلى أنها لم تكن بالنسبة له موجعة والميراث بخير لن يضاف أحد للمعادلة فيه والقسمة. فقط همست لنانا خديجة:

- أنا أسعد شخص في هذا البيت "نانا خديجة"، عمتي ستكون بخير.
- الأمر يبدو صعبًا لكن، على كلّ الاحوال إن كان لها خيرا فليكن، وإن كان شرا فليبعده الله.

كانت كلّماتها هي الشيء المنطقي الوحيد بين ردودنا جميعا، ولكني لم أهتم وبقيت في حالة من الفرح مبالغًا فيها، حتى عندما صعدت إلى غرفتي كنت اتراقص فرحا. دقت عليّ الباب سارة لتسألني:

- ما هو رأيك، هل هو شخص طبيعي؟
- نعم بالتأكيد، فقط لا يستطيع المشي، قالت إنه مُقعد فقط.
- لكن كيف سيعيشان سويا؟
- هما من سيقرران هذا، وأعتقد أنه أمرٌ سهلٌ إن كانا يحبان بعضهما، وأشعر أن عمتي لم تقرر الزواج إلا لأنها مغرمة أيضًا.
- لا أدري، ولكن سيكون هناك حفل زفاف صحيح؟
- أعتقد ذلك، وأنا أحب أن أرى عمتي في الفستان الأبيض.

فجأة ابتسمت بقوة وقالت بحماس:

- أخيرا سيكون هناك حفل زفاف في هذا البيت، عليّ أن أبدأ بالتفكير في فستان المناسبة، ماذا سأرتدي، سنلبس نفس الألوان أليس كذلك؟

سرحتُ قليلًا، لم أجدها سيئة تهتم فقط بما تلبس من كلّ هذا الموضوع، أبدًا، أحسستُ فعلا أنها سعيدة وأنها ببراءة تبحث عن الفرح، وفعلا كان هذا أول حفل زفاف وفرح في هذا البيت.

لفتت انتباهي أننا سنقيم حفلا، فعلا شعور لم أختبره!

-"إيلياء" أتسمعيني؟

- نعم، نعم وسنحاول أن نزين لها كلّ شيء وأن نمسك ورودا كورودها سنكون أيضًا سعيدتان جدا.

وسحبتها إلى السرير وجلسنا نتحدث ونتحدث عن تفاصيل كثيرة وكيف سيكون الزفاف وكيف سنتدرب على الرقص، وأقول أنا لا أعرف كيف أرقص يجب أن أتدرب وكنا نتحدث بسرعة ونقاطع بعضنا ونمسك بأيدي بعضنا لتتوقف الأخرى وتتحدث هي أو أنا، حضنتني سارة فجأة! أول مرة أراها هكذا وذكرتني وأنا أنظر للحائط أمامي وهي تغمرني، بفستانها القصير وجواربها المكشكشة وهي تنظر لي ولعمر وتحاول أن تلعب معنا.

كلما مررت بأشخاص في حياتي بعد ذلك الموقف، حاولت أن أتركهم يمرون قليلًا أمامي بمراحل صقلهم وردود أفعالهم وكنت أحاول أن أفهم جوهرهم، كـ"سارة" التي كانت تبدو زواياها حادة، ولكني اكتشفتُ أنها أبسط من أيّ شيء في الحياة وتحتاج إلى الفرح فقط وأن تمارس أيّ شيء بعيدا عن الحزن وعن الإرهاق، هكذا كان خيارها، وكانت به سعيدة و"في حياتنا سنقابل الكثير كـ"سارة" لو أزحنا الستار عنهم قليلًا لوجدنا أشياء جميلة وأشخاص يريدون أن يبتسموا ويمروا فقط من خلال هذا العالم من دون ضجة أو محاولة لتصحيح غيرهم "وجود هؤلاء يوازن من تطرفه بين قوتان واحدة تخرب وواحدة تصلح." وأنا لم

أنسها يومًا ولا تلك الليلة التي جمعتنا وقفزا فيها سويا على سريري حتى تعبنا ولم يتبق أيّ طاقة للضحك والرقص عندنا.

أبي وافق لأنني أعتقد أن حواراته المطولة مع عمتي في غرفته لم يكن هو على قدرها، قد كانت تجادله بالحياة والقوة والرغبة بأن تمضي جسدًا وروحًا معا وألا تبقى كما هي بقايا فقد أمها وأبيها، وعثرات نفس سيئة من من هم حولها وهو كان مكللا بمحاولات حياة يتمية بعد موت أمي وبأيام يملأها العمل والعائلة فقط والصمت. ولا شك أن غياب جدي وكبر عمرها أعطاها الحق وكان كما النقمة أيضًا نعمة، الله لا يأخذ من دون أن يعطي، هذا أمر أضفته لنفسي فازداد السلام داخلي ورقصت قليلًا روحي المبللة تعلمت الرقص كما تعلمت أنا قليلًا منه استعدادًا ليوم عروسنا الكبير.

الذي حدث معها، أكبر مثال على أن الشخص الذي يرسم حدًا لنفسه في الحياة يصبح كمن يرسم حدود قبره، وأن الحياة لا تحب المسالمين وإنما تحب المترددين عليها، وأن حدودنا فيها أكبر مما نتخيل ومما رسمناه لأنفسنا بأفضل حالاتنا.

"وأننا إن تعدينا تلك الحدود التي رُسمت لنا، لن نحترق، ما دمنا واثقين بأنفسنا، وسنتحمل خياراتنا للنهاية، الحياة ليست بمساحات أَراضي، لا يوجد فيها صكوك ملكية، لا حدود، لا إتفاقيات، لا بيع ولا شراء، هي تحب المُتمردين عليها، تحب الحروب، لا تؤمن أبدًا بِمعاهدات السلام ولا بحبرها على الورق ولا بالسياسة ومحاولة التطبيع لنمر بسلام."

بعد إعلان الخطوبة، كانت الصباحات في البيت مختلفة، الحياة أصبحت تبرق حولنا بامرأة تشبه زهر عباد الشمس تلحق الضوء والفرح وتتفتح، وشممت رائحة جديدة، تشبه تمامًا رائحة الخشب الرطب والمهجور الذي تعرض للشمس بعد دهر، هكذا كانت رائحة البيت بسببها.

شاركتها تفاصيل زفافها، أمضينا أوقات كبيرة في السوق، زرنا أماكن كثيرة، شاركتهم رحلة إلى حيفا ويافا وكنت أنا المرافق الخاص بهم حسب المجتمع، وكان هذا حظي الجميل، كنت أخذ منهم جرعات طاقة وحب تكفيني عمرين فوق عمري. أقفلت لها فستانها من الخلف ورميت بطرحتها على امتداد ذيل فستانها، ثبتُّ أقراطها اللؤلؤية في أذنيها وساعدتها بتثبيت تاجها وتعديل مكياجها رغم أن دماء الحياة التي كانت تضخ في وجهها قامت بهذا الدور. .

كنا أنا وسارة نرش الورد حول خطواتها وهي تخرج من البيت، نرش الورد كما نثرناه على وداع عمر لكننا الآن فرحين، بكينا فرحًا، ولبسنا فساتين جميلة جدًا وجربت لأول مرة أن أضع أحمر الشفاه ورفعت شعري حتى بان جرح جبتهي الصغير، والتقطنا الصور وأحببت نفسي وعمتي وسارة وزوايا البيت وكل شيء حتى رنين أساور زوجة عمي وهي تصفق.

أما ياسر، فكان أكثر الرجال الذين رأيتهم اكتمالا، له وجهٌ يستحي المرءُ من ألا يحبه، ابتسامتُه تخترق ذقنَه وتُحيلُ عجزَه صِفرًا، كانت أمه تقود كرسيه باتجاه عمتي، وهو يرتدي بدلة رمادية اللون بقميص أبيض من دون ربطة عنق.

وتذكرت في لحظتها أنني كنت قد سمعت حوارهم المضحك والجدي جدًا وبعقدة جبين عمتي واعتراضها على أنه لا يحب ارتداء ربطة عنق وهي تصر وتمارس تفاصيل المرأة المتحكمة.

لم أرَ الأمر إلا في غاية الجمال، إنها تمارس الحياة معه كاملة وطبيعية كأنها ما كسرت يومًا ولا ضعفت. كان يضع في جيب سترته وردة قرنفل بيضاء، وما أن وصل إليها وانسحبت والدته حتى قدم له الوردة كلّما تذكرت زفافهما، رأيتهما كطفلين صغيرين لا يعرف هو كيف يقدمها ولا تعرف هي كيف تأخذها. ولم يحتَجْ ياسر إلى أن يركع ليقدم لها خاتم الزواج ككل الذين يحاولون أن يبدوا كفرسان من العهد القديم، هو خلق أميرا جميلًا هكذا من تلقاء نفسه، لبسا الخواتم وانحنت فقبل رأسها وأمسكت بكرسيه ومضيا معًا في طريق حياة كانت اختيارهم بكل تفاصيلها، كان أجمل حفل زفاف، وكانت عمتي أجمل مَنْ أرغَمَ الحياة على أن تزفها بأكليل ورد وفستان أبيض إلى قدر لابد وأنه هدية سماوية في عمر من الفقد، شممت رائحة روح جدي، كانت رائحة كبرياء يود لو يرقص بعباءته وعكازه وحتى عمر كان موجودًا في الزفاف، "رأيت أطفالا يحملون غزل البنات، فشممت روحه وابتسمت كأنه يراني وأبدو له جميلة لربما"..

وكلما رأيتهم سوية وجدته أكثر الرجال في عهد إنصافه، وأوفى الأرواح في زمن عجز كامل لأشباه رجال.

نصف جسد كان وروح تساوي كفة مليئة بالرجال، وعمتي كانت الزهرة التي انحنى ساقها، لكنها احتفظت بنفسها بين دفتي كتاب، فكانت جميلة عندما

وجدها ياسر بين كتبه الكثيرة، كان عجزه الشيء الذي احتاجته عمتي لتراه وتلتقيه "وتغرم به حد الحياة لا الموت والاكتمال لا النقص والعجز".

في هذا الصيف اكتمل الفرح بزيارته لي وكنت من المتفوقين وتخرجت من الثانوية بمعدل أكثر مما توقعت، وأنا أيضًا كان لي حفلة صغيرة شاركني فيها ريم وطارق وعمتي وياسر ومن في البيت وصديقات وزميلات الدراسة وكانت حفلة الوداع، وداع باختياري أنا، الآن ساختار ماذا أريد وأين، "حان وقت تمردي ".

الفصل الثامن

طوق الحزن

"رِفقاً بِقلوبٍ قَد طَوقها الحُزن
بِأكليل ورودٍ، ذات أشواك،
جَميلةٌ هي لَكنها مُتألمة"

دوسيلدورف، DÜSSELDORF - ألمانيا

(خلال زيارات جدتي المستمرة)

أفرغ حقائب نفسي، هذا هو العنوان الحرفي لزيارات جدتي و لا شك أنها كانت وقوفا أيضًا على أطلال الذكرى لأمي وشجرة اللوز التي أخذت تموت عاما بعد عام، إلا أنني كنت كالذي فعلا يحمل كلّ عالمه القاسي وتفاصيل أيامه في حقيبة ويذهب بها، لا بحقيبة الملابس، فأفرغها هناك وأفرغ كلّ ما بداخلي فأغدو أكثر استقرارا.

أذكر الزيارة الأولى لجدتي بعد قرابة عام ونصف من وفاة أمي وانتقالي للقدس، وقبل أن أمر بكل ما مررت به، كانت الزيارة غير واضحة، بدوت كضيفة عند وصولي وأعتقد أنها كانت تحاول أن تفهم طباعي الجديدة التي اكتسبتها، وتتعامل معي، ووجود أبي في اليوم الأول أضاف طيف صمته علينا فمارسنا الأحاديث الرسمية والأسئلة التقليدية والنظرات المتبادلة.

وبعدما ودعنا في صباح اليوم الثاني ليكمل أعماله قبل عودته للقدس وكتب تفاصيل عودته لأخذي بعد شهرين وهو يحاول أن يشرحها لجدتي قال لي:

-أنتِ "إيلياء" القوية الجميلة وجدتك تحبك، اعتني بها أنتِ أيضا

- وأنت أبي اعتنِ بنفسك وأوصل سلامي لعمر وسارة

ببطءٍ بدأت علاقتي بجدتي تدريجيا بالعودة إلى اتزانها، نزلت عن الدرج الخشبي ذاته بموسيقاي بعدما، شممت رائحة الخبز وجدت وردا خمري اللون يتوسط

الطاولة، ابتسمت، و طلبت الحليب والخبز، لا زلت أذكر إحساسي وحنيني كأني ما أكلتُ منذ عام!. تحدثتُ كثيرًا حتى بردت قهوة جدتي وهي تستمع لي، فأفرغتْ جيوبي من كلّ شيء، قالت:

-كلما تكبرين أرى فيك أمك أكثر وأكثر حتى في تفاصيل الوجه والابتسامة، وأعرف الآن أنك لم تتغيري، أنت كما أنت، وأدرك أن عنادك أيتها الكنعانية الصغيرة سيكون مصدر قوتك، أنت لن تفقدي أيّ شي داخلي بكونك "إيلياء" مهما رحلتِ أو بقيتِ، واليوم سنزرع في الحديقة كما كنتِ تحبين، وسأحكي لك قصص قبل النوم، أحضرتُ لكِ كتبًا كثيرة ونستطيع أيضًا أن نذهب لصندوق الكتب وسط المدينة هناك الكثير، خذيها معك ستحافظين على لغتك الألمانية.

- لا تقلقي جدتي، أيضًا المدرسة التي دخلتها يتحدثون فيها الألمانية وأنا أكثر من يتقنها هناك، لقد كنتُ سعيدةً بذلك، في اليوم الأول كنت خائفة جدًا ولم أتوقع ما سيحدث وكيف سأتحدث معهم، لكن الأمر مرَّ أسهل بكثير مما توقعت، وأود جدًا لو أذهب معك إلى الصندوق، متشوقة إلى هذا.

كان هذا الصندوق غنيمتي الدائمة والتي تحتل الزاوية اليسرى من حقيبة سفري، اِطَّلعتُ على أغلب الكتب الألمانية بسببه ومنه اكتشفت كتب الكاتب رفيق الشامي الرائع التي يجمع فيها صور المجتمع الألماني من نظرة عربي مقيم فيها، وأيضًا حصلت على مجموعة من كتب أمي المرتبة بشكل أنيق على رفها في غرفتها التي لم تتغير.

أثناء يومنا وزراعتنا في الحديقة أخبرتني أن أبي قد أخبرها بأن العام القادم ستكون أجازتي قليلة هنا، فقط بضعة أيام، لأن عليّ أن أحاول أن أتعلم العربية بقوة أكثر وبسرعة حتى لا يؤثر الأمر عليّ بانتقالي للصفوف الأعلى والأصعب، التي تحتاج لغة أقوى وقواعد سليمة، كان أبي يعرف أنه يجب أن أعود لفترة كافية في زيارتي الأولى لجدتي، حتى يحميني من إحساس الانفصام المفاجئ والانتقال من عالم لعالم آخر مختلف، وليبقى اتصالي مع عالم أمي وذكرياتي بطريقة صحية، كان لا يعبر ولكني أعرف أنه كما قالت أمي رجل قوي. أثناء حديثنا عندما لمحت شجرة اللوز، سالت جدتي:

- أين صندوقي الخشبي؟

بعدما استندت بيديها على ركبتيها ووقفت وأخذت تخلع قفازيها من يديها قالت وهي تنفض التراب منها:

- لا أدري أين خبأته الآن، سأفتش لك عنه لاحقا، هيا علينا أن نحضر الطعام ونعود بعد الظهر لنكمل زراعة الباقي حتى تستطيعين أن تراقبي نموها أثناء بقائِك هنا وربما تحظين بثمر منها.

حاولت التهرب مرارًا، وكانت تملأ أيامي بالعمل في الحديقة والتجول معها في السوق وإعداد الطعام وانتظارها ريثما تنهي حديثها مع الجارات ومن تتلاقى بهم في الطريق، وبقراءة القصص لي، ومحاولت تعليمي لنسج الصوف.

وفي النهاية في صباح اليوم الرابع، نهضت ورأيت جدتي تجلس على سريري في زاويته اليمنى، وبيدها الصندوق ابتسمت وقالت:

- كلّما رأيته ابتسمت وقلت لنفسي كم أنا فخورة بكِ وكم أنتِ قوية.
- صباح الخير جدتي، هل لي أن أحظى به لدقائق وحدي.

لم يكون فتحي للصندوق محزن بقدر فرحي به، رغم أنني ذرفتُ دموعًا ثقيلة قليلة، وكنت أُحسُّ بشوكٍ في حلقي وهي تنزل، لكنه كان الذكرى الأخيرة لي مع أمي، والشيء الوحيد الذي حاولت أن أقدمه لها.

وجودي في البيت من دونها كان موحشا بلحظات كثيرة، لكني أيضًا في المرحلة الأخيرة تعودت على غيابها، كانت في المشفى دائمًا ، فكرت أن الغيابَ أمرٌ أصبح روتينا يوميا، يتحول إلى عادة، هو أمر قاتلٌ للإحساس كالسم البطيء من دون أن ندرك، هل هذا أحدث لدي حساسية أقل في زيارتي الأولى أم أنني فقدت قدرًا من الإحساس؟، لا أدري ولم أستطع إلى الآن أن أجد إجابة، لكنني شعرتُ أني كبرت كثيرًا خلال عام ونصف! وجعي كان يكبر داخلي كجنين فأكبر معه كأم قاصرة، وجدتي أيضًا أعرف أن الحزن يطوق قلبها بِأكليل ورودٍ، ذات أشواك، جَميلةٌ هي لَكنها مُتألمة، وأنها رغم الانطباع الذي تحاول أن تتركه بأنها على ما يرام ولا تأبه لشيء، أدرك تمامًا نقيضه داخلها، كان قلبها يُعتصر من الوحدة، الذين أحبتهم جدي وأمي وحتى أنا رحلوا وتركوها وحدها، مع طاولتها وحديقتها والصور والاتصالات اليتيمة مني.

" أعتقد أنني اكتسبت مظهر البرود منها رغم أن داخلي جبل ثلجي يذوب تحت شمس مباشرة".

حتى في الاعياد أعرف أنني عندما لا أكون متواجدة تقضيها في سريرها، وأعرف أنها لا تزيل شجرة العيد، وأنها تكسد الهدايا وتشتريها لي دومًا وتجعلها تنتظرني كما هي تنتظر، وتشعر بالعيد على حسب الرزنامة للشهر الذي فيه موعد وصولي، وأعلم أن عزاءَها الوحيد أنني ساعود ربما يومًا ما لأعيش معها، ولا أنسى عندما كنت أراقبها وهي تشعل الشموع وتصلي في الكنيسة كنت أرى مدى مناجاتها لله وتوحدها الكامل في تلك اللحظات.

مضى الشهران وأنا أمارس فيها طقوس كلّ سنين الفائتة، وكانت أيامًا جميلة التقيت فيها بمادلين وكاترين وسبيستيان في احتفال شهر تموز في وسط المدينة وأغلب الذين كانوا معي في الحضانة والصف الأول وكان شيئا أعاد لي نوعًا من الانتماء بشكل ما لمراحلي الدراسية الأُوَل.

وقابلت الجارات اللواتي كُنَّ يحببن جدائلي، كُنَّ أيضًا لطيفات، وتذكرت ابن عمي عمر بسبب أكياس غزل البنات المتناثرة، ورأيت أشخاص كثر يتحدثون العربية، بتُ أفهم لغة أخرى حتى لو بكلمات بسيطة وكان شيئًا جميلًا لحظتها، لكني أعتقد أنني حينها اشتقتُ للقدس دون أن أدرك.

وقت الغروب وفي اليوم الأخير لزيارتي الأولى قبل سفرنا، وبرفقة والدي وجدتي في وسط المدينة بعدما عاد ليأخذني في رحلة عمله التي خططها كي تتناسب مع عودتنا، جلسنا على طاولة تطل على الدرج الذي ينزل من خلاله الناس ليصلو لأقرب ممر من نهر الراين، وكان مشهد الغروب ذاته يتكرر في كلّ زيارة لجدتي بعد هذه، وهناك بالذات وبنفس المكان وأمام الجسر، أشعر بأني ألتقي نفسي

بموعد خاص وأنا أراقب الشمس تغفو في الماء، أو أشعر وكأنني توأم انفصل والديه وأضحى كلّ واحد منهم مع طرف، وصارا يلتقيان كلّ أجازة سويا ويتحادثان، إحساس يجمع عالمين مختلفين متناقضين ويصيب طرف حقيقة أنني عانيت من انفصام مؤقت، فالمحادثات الداخلية بيني وبين نفسي تستطيع أن تُخط كمجلدات، لكنها كانت من أصفى اللحظات أو غربال لحظاتي، الحديث مع النفس ليس من سمات الجنون فقط أحيانا يكون محاولة لفهم نفسنا أكثر ولمواجهتها وغربلة ما فيها وعلاجها.

في الزيارات الاخيرة التي سبقت انقطاعي الطويل عن زيارتها، وتحديدا قبل استشهاد عمر وموت جدي، كانت العلاقة بين أبي وجدتي تزداد عمقًا والحديث يكثر بينهما، بسبب تحولي "للمترجمة الخاصة" بهما.

أخبرتنا جدتي عن تاريخ هذه المدينة دوسيلدورف الجميلة التي يقصدها الناس من كلّ انحاء العالم، والعرب خصوصا وستجد على بعض واجهات المحلات أوراق معلقة باللغة العربية. تحدثت بطريقتها التي أطلَّ منها أُسلوب معلمات المدرسة، وكما كانت هي تحديدًا:

- كان بدايتها من التقاء نهر الدوسل الصغير بنهر الراين، الذي كان مثاليا أن يجمع مجموعة من المزارعين التي بدأت تكبر مع مرور الوقت وتنمو، إلى عهد نابليون حيث ازدهرت أيضًا في عهده واتخذها عاصمة له، ولكن مع هزيمته تدمرت بالكامل بمرورها بعد ذلك بفترات الحرب العالمية الاولى والثانية، كغيرها من المدن الألمانية، ورغم كم الدمار والهلاك فيها، إلا أنها استطاعت أن تنهض من

جديد وتغدو اليوم من أهم المراكز الأوربية سياحيا واقتصاديا، ومعدل المعيشة فيها من أعلى المعدلات.

وبعدما قمت بترجمة هذا وترجمة أسئلة أبي وإجابات جدتي، طلب مني أبي، أن أُترجم له أيضًا توضيحا لها كان يتمنى لو يستطيع أن يشرحه من قبل لها حيث قال:

- بمناسبة الحديث عن الحقائق التاريخية، تاريخيا اسم "إيلياء" لا يعود للقدس في عهد الكنعانين وأن الاسم كان أورسالم أيّ مدينة السلام في تلك الحقبة، وأن اسم "إيلياء" يعود إلى العهد الروماني وله أكثر من طريقة للفظ والكتابة ومعناه بيت الله، ونستطيع أن نختصره كما نناديها كثيرًا "إيليا"، واسم "إيلياء" يقال أيضًا انه مشتق من علم المذكر "إلياس" (*)2، لكن يكفي عناد رأسها لنلقبها بالكنعانية الصغيرة.

لم أتضايق يومًا من جملته الأخيرة. على العكس كنت أشعر بلذعة غرور جميلة وأنا أُترجم لها وبعدما أنهيت الترجمة الحرفية قلت:

- أنا أحب هذه المدينة لربما ليس كتعلقي بالقدس ولكني أُشابه جزءًا منها وأحتاجها بين الحين والحين لأُفرغ كلّ شيء وأعرف أنني سأعود إليها قريبا، أبي أنت وعدتني أنني أستطيعُ أن أُكمل دراستي هنا؟

صمت قليلًا ينتظر ترجمتي لجدتي بأنني قمت بسؤاله هذا السؤال واستمررت خلال الحديث كامل أترجم اللغتين بشكل متعاكس ومزدوج لهما عندما أتحدث أنا!.

(*)"إلياس": المتعبد والمتصوف لله، واسم نبي من الانبياء.

- أنا لن أقف يومًا أمام مستقبلك، ولكن أنت من ستحديدينه بتحصيلك وماذا تريدين.

- "إيلياء" صغيرتي والدك على حق، عليكِ أن تحددي هدفًا وتجتهدي من أجل الوصول إليه وأنتِ تعرفين أنني سأكون أسعد الناس إن عدتِ للعيش معي هنا، "كانت جدتي تقول هذا، وبداخلها يصيح: أرجوكِ افعليها "
- أعرف بكل الاحوال أنك ستكونين مع جدتك هنا لو اخترتِ، ولكن يجب أن تكوني قوية أولًا وعلى قدر اختيارك.
- أنا أريد أن ادرس الطب، وتخصص الأورام تحديدًا، أعرف هذا وأعرف هدفي.
نظرات عيونهم لبعضهما بعد قولي لهذا كان كافيا ومفهوما ولا يحتاج إلى الكثير من الدراما والشرح ودخول الموسيقى التصويرية الحزينة، أكملت:
- سأحاول أن أُحقق هذا، وسأكون وقتها سعيدة جدًا لأنه سيكون أول شيء بمجهودي وبقراري واختياري.
هكذا كانت تمر زياراتي إلى ألمانيا في المجمل و التي كانت تختلف بنواحي أخرى لأنني أكبر وأحمل قصصًا وتجاربَ مختلفة في كلّ مرة، وأصبحت اهتماماتي تتدرج، من الخروج مع جدتي للكرنفالات والاحتفلات واللعب إلى تحديد مصيري ورسم مستقبلي وأخذ القرار.
والآن، أنا لست في هذه المرة في زيارة، عدت إليه كما تركته، قدمت مباشرة بعد ظهور النتائج، وقدمت للعديد من الجامعات ولحظي حصلت على قبول للطب

في مدينة تبعد عشرين دقيقة بالقطار عنها، في يوم حصولي على رسالة القبول في البريد رأيت الغروب الأجمل لنهر الراين، الذي بدا لي فوق الجسر مختلفا في هذه المرحلة من حياتي كان مفعما بالمشاعر والإرادة والطموح والتشبث بحياتي الجديدة. رغم أن الشمس عندما كانت تعبرمن فوق الجسر فتذوب قليلًا قليلًا تحته كأنها تنام في أسفله، وينعكس الضوء الأحمر والبرتقالي على وجهننا ونحن نجلس على الدرج العريض المطل عليه المليء بالناس والقصص الفرحة والحزينة والأحاديث الكثيرة، يستحضر المشهد هذا مشاهد كثيرة لي و يختصر بنقطة ما قصة حياتي كلّها ويذكرني أحيانا كثيرة بكم من الذكرى متعب.

في كثير من الأحيان كنت عندما أمشي في شوارع جميلة أجد بعضها تشبه شوارع القدس وحيفا فعلا، وحتى وسائل النقل تشبه قطارات الشوارع نفسها، لكن الوجوه مختلفة والنظرات مختلفة.

في القدس وجع وحرب والموت ليس أمرًا مفاجئًا وإنما المفاجئُ ألَّا تموت، في القدس حق ضائع وحرب ليس أساسها الدين، وإنما القوة والظلم، في القدس أرى نفسي مكشوفة لكل شيء للموت والحياة معا، وكلما دار كفي هناك جابهته الشمس فارتسم داخله كوشم أنني في القدس كان مولدي وهي حق منزل لي ومهما مضيت ومضيت اشتاق فأعود لوطن تعلمته ولم يكن لي فقط ولادة.

بدأت أيام الدراسة، كنت وحيدة فيها خلال قاعات المحاضرات وممرات الجامعة، وكل ما فيّ يعيد ضبط ساعتي البيولوجية على الحياة مجددا في ألمانيا وفي بيت الذكرى، أول شهور كانت مكتظة بالدراسة والعالم الجديد ومتابعة انتظام أدوية

جدتي وقضاء الوقت معها وأحاديثنا المعتادة واتصلات أبي الكثيرة وزياراتها المتكررة والتسوق الأسبوعي

والرد على الرسائل البريدية واتمام التحويلات البنكية والتأمينات في مرة قلت:

-جدتي كيف كنتي تقومين بكل هذا لوحدك

-عزيزتي هذا ما كان يشغل حياتي تعودت على رويتني

كان لا بد أن أُغيِّر هذا الحديث الذي تحول لطيف حزن، إنها طريقة أمي، ويبدو كنت أمارسها دون أن أدرك!

-لكن أتنكرين أنني سكرتيرة ومديرة، أعمال ومدبرة منزل جيدة؟ أعتقد أنني أستحق فعلا راتبا على هذا.

-عنيدة وتحبين المال أيضًا

-ومن لا يحبه، أعتقد أني أحبه، نعم نعم. جدتي بصدق الآن، أعتقد أنني اشتقتُ للقدس وكنت أتمنى لو أنك زرتيني مرة هناك.

- وأنا أتمنى وأشتاق إليها وأحبها كنا نذهب إليها في أغلب اجازاتنا وأحب حيفا أيضًا كثيرًا.

بحديثها هذا ذكرتني بأول كتاب حقيقي على شكل رواية وقد كان عائد إلى حيفا لغسان كنفاني، واذكر أنني تابعت مشاهد مصورة له وبكيت من قلبي، القصة كانت موجعة جدًا.

-جدتي اتعرفين أن هناك شوارع هنا تتشابه معهما، هناك ترابط كبير وغريب

- لاحظت هذا وأيضًا جدك صور بعض الصور وشاهدها أصدقائه، هناك أحياء ومناطق جميلة تشبه شارع الملوك هنا.

- لماذا سُمي صحيح باسم شارع الملوك؟، هل كان يسكن هنا ملوك قديمًا؟

- لا، السبب هو المناظرالجميلة هنا، بالاضافة للمحلات التجارية العريقة.

- أتدرين، سأخبر أبي بألا ينسى الزعتر معه، لقد قارب على النفاذ تفقدته صباحا، وأريد كعك السمسم أيضًا.

- جميل هو تعلقك بالقدس، أنتِ تتعلقين دومًا بالأشخاص والأشياء والأماكن وصعبة النسيان.

- لا أنسى يا جدتي، لا أنسى.

مضى هذا المساء جميلًا ومشاكسًا مني لها، كنت أحاول أن أمضي أغلب وقتي معها وأجعلها تبتسم، وكنتُ أقرأ لها بصوت عالي فتسمع ما أقرأ وأحيانا كنا ننام أمام الموقد الخشبي ونستيقظ أنا محطمة العظام وهي مرتاحة بسبب أريكتها المريحة، حتى عندما كنتُ أود أن أُتابع برامج التلفاز لوقت متأخر كنت أحتل أريكتها وأمد قدميّ كما هي على المنضدة أمامها. وأقول لنفسي: "آآخ.. جدتي المدللة تدلل نفسها، لآخُذَ قسمة منه أنا أيضًا، أعتقد أنني بحاجة لنفس أريكتها، يبدو أنني أتقدم في السن".

انتهى الفصل الدراسي الأول، وقضيت عطلة الشتاء أمام التلفاز وبين الكتب وتذوق طعام جدتي اللذيذ، والتدريب التمريضي لطلاب الطب، كان في المشفى نفسه الذي حمل آخر لحظات أمي، لكني تجازوت الأمر بعد أيام وحولت هذا

الكمّ من المشاعر إلى طاقة للتعاملِ مع المرضى هناك، كنتُ أُحس بسعادة من خلال فكرة المساعدة والعطاء" أيّ القدرة وأنني أمتلك شيئا ما"، أن أساعد هو فعل سعادة بالنسبة لي، كأنني أتممت ألف شهادة وحصدت التكريمات، كنت على قناعة أنني لربما أغادر الحياة ولم أتمم ما أصبو إليه، لكني أكون مع هذا ساعدت لو شخصًا واحدًا وإن كان بموقف بسيط، لكنه هذا الموقف قادر أن يعدل مزاجي الاف المرات أكثر من كوب قهوة.

كأن أُعطي رجلا مسمارًا ليثبت الدراجة فوق سيارته بدل الذي وقع منه، حيث تجمد في مكانه ولا يستطيع أن يعرف ما يفعل أمامها وهي ستهوي في أيّ لحظة، هي مساعدة صغيرة جدًا لو حسبتها بحجم المسمار، وكبيرة لو نظرت إليها كحوار إنساني على شكل مساعدة بين غريبين سيفترقان ولن يلتقيا أو ربما يلتقيا! وهو لقد عنت له الكثير ورغم أن القطار فاتني كنت في قمة فرحي، ابتسم لي مرة أخرى من بعيد وبعدما عرف أنني فوَّتُ قطاري، ناداني بصوت عال شكرًا سمعه كلّ من حولي.

هذه المواقف الصغيرة التافهة للبعض من المساعدة أو مراقبة التفاصيل البسيطة للأشخاص الآخرين كانت تجلب لي السعادة بشكل لا يوصف، وأُدرك من خلالها اقتناعي بـ"كارما" الحياة والطاقة، كلّ شيء سيمر في دائرة ويعود إليك، عملك سيعود إليّ على هيئة تناسبك وتساعدك والمشاعر التي تنثرها كبذور في قلب أحدهم ستنمو أيضًا في قلبك بطريقة ما يومًا ما، الدائرة مغلقة والهرب منها يعني أنها فتحت أيّ أنك غادرت الحياة.

وكنت أحاول دائمًا أن أترك مكاني لأي سيدة عجوز تقف في المواصلات، ورغم أنني أحيانا كنت أتعرض بسبب عرضي هذا للرفض بسبب شعورها بالعجز، أو احراجي بأن تقول "سأنزل في المحطة القادمة"، لم أكن أتأثر ولم أتوقف عن فعل هذا وكنت أتعامل بطبيعية، أو لأني ربما من هذا المجتمع بشكل ما ولم أبذل جهدًا في استكشافه.

في ألمانيا، نعم تعني نعم ولا تعني لا، لا يوجد لون رمادي في القرار والإجابة على طلب بشكل عام وإن كان سؤالًا غير مرحبٍ به، فسيكتفون بالسكوت إن أرادوا ألا يجيبوا أو يطلبوا عدم الحديث بالأمر بشكل واضح وقطعي. أما في المجتمعات العربية الأمر رمادي جدًا والإجابات لا تَمُتُّ بصلة للواقع والحقيقة، وفي أغلب الأحيان تحكمها دراما اللحظة وإحراج الأشخاص، والأُمور قابلة للتغير وليست ثابتة، مما يشعرك بالفوضى. رغم أنهم هنا يراقبون بعضهم كثيرًا ويتشابهون مع العرب بهذا وبانتقاداتهم وكثير من العادات المجتمعية بين الجيران والعائلة نفسها تماما، ولكنهم يستطيعون أن يحصلوا على خصوصيتهم وقتما يشاؤوا وأن يخرجوا ويدخلوا إليها من يريدون على نقيض مجتمعاتنا العربية: "من يدخل حياتك حتى لو صدفة، سيرافق سيرتك الذاتية كلّها وحتى لو خرج منها وحاولت أن تطرده، ستُوسَمُ به!"

ومن التفاصيل والأشياء الجميلة التي كنت أراقبها وألتقيها أيضًا، وترتسم في عيوني قلوب ملونة هي عندما كان يمرني جارنا وزوجته، كانا يخرجان سويا وهما أضعف من بعض، ولكنها كان تتكئ عليه دائمًا وهو بالكاد يتكئ على نفسه، في

مرة التقيته من دونها، أخبرني ذات حزن أن منسوب الماء ارتفع في عينها وما عادت ترى، وبذات فرح عندما قابلتهما وهو ينظر إليها ويقول لي "كل شيء عاد إلى طبيعته وهي أفضل وتزداد جمالا اليوم."

التفاصيل تصنع السعادة، والتفاصيل قد تسد الثقوب التي تحتوينا بفعل عوامل الزمن وتقلب الأشخاص والظروف كما المناخ، وأنا كنت أحيك مما حولي هذا عالمًا جديدًا خاصًا بي، وكنت أحاول أن أكون بخير، وأن أعود لأتأقلم في المكان بعد غيابي عنه لسنين والتواجد فيه كزائرة فقط لها قدر من الزمن فيه، وألا أتنازل على أن أكون قوية وأمضي إلى هدفي، فحاولتُ أن أكون قويةً، وأن أذكر نفسي بما أريد وأكتبها كأهداف، وأكرر لنفسي أن أحلامي بين الغيوم كلّما جلست أراقبها بصمت، وكانت هذه الثقة وهذا التملك النرجسي لكل شيء أريده، نقطة البداية أن تثق بنفسك في كلّ شيء وأن تجعلها محط التحدي وتحاول أن تنتصر عليها أو بها، خصوصا في المرات الكثيرة التي نقول فيها:

"لا أستطيعُ، لن أقدر، لن ينجح هذا، لن يكون مميزا، لن يكون مرضيا لغيري".

من هم غيرك؟، غيرك لا يشكلون إلا إضافة، لم يكونوا يومًا ما الجزء الذي يكملك، وإن كانوا هكذا في مرة فنحن الناقصون ونحن من أعطينا مساحةً لهم لنكتمل بهم وننهزم بدونهم!

"فأحلامُنا كَالطيور، مِنّا من يجعلها تأكل الفتات، وتَفترش الأرض طلباً لِلبقايا، وَ مِنّا مَن يَصنع لها بين الغيوم عشاً! "

الفصل التاسع

اعترض موكب حياتي

سَمعتُ صوتاً يَتحدث، كان يُشبه صَـوت المطر فِعلاً لا تُميز
مَـن هي أجمل قَـطراته ولا أولها، لهُ طَريقة يتكئ آخرها
على لَكنة مُقنعة، لو كُنت أنا الذي أُحادثه عَلى الهاتف لَكنت
رفعت رايتي البيضاء وَوافقته رُغم أنني سأُجادله
وأستمتع بانفعالاته، لأسمعَ صَـوته أكثر

قطار الشارع الناقل U-Bahn

دوسيلدورف، DÜSSELDORF - ألمانيا

انقلاب مفاجئ كان فصلي الدراسي الثاني، ومحطة جديدة في حياتي،
من خلال قطار الشارع الناقل للجامعة، الذي يكون في الصباح الباكر دومًا مكتظا جدًا، حتى وإن كان يأتي كلّ ثلاثة دقائق، تستطيع أن ترى وأنت تنزل من الدرج حشدًا كبيرًا ينتظر كأنهم يقفون في حفل موسيقي مكتظ!
يومها لم يتبقَ وقت كثير على بداية الدرس الأول في التشريح، كنت متحمسة ومتوترة، مواجهة كبيرة تنتظرني أو أن الدراما داخل عقلي المبالغ فيها هكذا صورت الأمر لي بتشريح جثة لمتبرع، قرر أن يبقي له أثرًا لا يمحى بعد أن مات!.
وصلتُ أخيرا لخط انتظار القطار بعدما مرت ثلاثة أو أربعة قطارات، ولحسن الحظ حصلت على مقعد لأجلس على الطرف، وفي أثناء جلوسي ومراقبتي للنافذة التي كان يغطي نصفها رأس الفتاة بجانبي اجتاحني شيء، كان هناك وقع حديث عربي بدأ بالمعنى الحرفي يُبلل جزءًا من طَرف روحي ويُخلُّ
باتزاني، لديه لَكنة مُقنعة أستطيعُ أن أرفع راياتي البيضاء في مقابلتها، حديثه على الهاتف سلب خوفي وقلقي، وحول الوقت لثوان وكأن القطار لم يتحرك إلا لمحطة واحدة.
نَـظرت بِـطرف عَـيني إليه كان يجلس بمُحاذاتي بيني وبينه فراغ بَـسيط للعبور منه، رأيتُ كِـتاباً مُكتنزاً تتوقف فيه ثلاثة أصابع مغلقةً إياه قليلًا ريثما يُـنهي

حَـديثه على الهاتف لربما، وَساعة أشارت لِلوقت: الثامنة ونصف صباحا بتوقيت المُباغتة، لا أدري إن كان عُـطره قَـوي للدرجة الذي جعلتني أشتمه هكذا أو أنني فعلا حينها شممت رائحة لِـلكلام وللحضور للذي لا أعرف اسمه، فأنا أُتقن الروائح، لكن هذه الرائحة لم تزُر روحي قبلا!

وَبـين مُـحاولتي لِـقراءة اسم الكِـتاب تَـحرَّك رأسُهُ باتجاهي فرفعتُ رأسي، رأيتُ عيناً واحدة لا أعرف لونها، ما تعودت يومًا أن ألحظ ألوان العيون لا أعرف لماذا، وظهر نصف وجهه وابتسامة تَكوَّنت مُحدثةً خَطًا حول طرف الفم فتكتل ذقنه تعرجات تعثرت بها، كانت أجمل من سماءٍ مُكتنزة بالغيوم السوداء المتخللة أيضًا برمادية صغيرة كَـذقنه، وَحلَّ الـرَعدُ والبَـرقُ فيّ وأعلن القطار عن محطة الجامعة.

حسنا، عليّ أن أستعيد توازني، لم يبقَ إلا القليل على صف مختبر التشريح وعلي أن أستلم بطاقة التعريف خاصتي قبلها، "هيا وكفي عن هذا"، مونولج داخلي صغير أعاد اتزاني قليلًا فقط قليلًا، وبدأت أصعد الدرجات اثنتين اثنتين، وصلت للغرفة الزجاجية واستلمتُ بطاقتي وسألتُ عن الوجهة، ثم تنفست، فتحتُ عبوة ماء وشربت، ورفعت بكلتا يدي شعري المتعرق عن جبهتي وبان جزءٌ من جُرحِها فأخذتُ أجمعه ككرة في وسط رأسي، لبستُ الرداء الأبيض وعلَّقتُ البطاقة، أخرجتُ دفتري الذي اختارته لي جدتي والمليء برسوم كرتون غريبة كأنه لطفلة في الصف الأول، و مقلمتي، أقفلت الخزانة ودخلت.

كانت عبارة عن غرفة كبيرة جدًا، مقسمة إلى أربع طاولات كبيرة وعلى كلّ طاولة مجموعة، مجموعتي رقمها أربعة وعشرون، اتجهت لها وجلست وبقيت أراقب كلّ ما حولي في انتظار أن يدخل الدكتور المشرف وأخذت أفكر بالكثير من الأُمور وبه "رجل المباغتة "، تنفست وقررت أن أُعُدَّ للعشرة وأتنفس بطريقة أربعة شهيق، اثنين حبس نفس، وستة زفير بطيئ، هذه الطريقة تستطيع أن تلغي تفكيرك عن أيّ شيء لمراقبتك تنفسك وتعيد لك تركيزك، وفجأة حل الصمت ودخل مجموعة من الأطباء وأخذو يتوزعون على الطاولات، بحدقة عيني التي اتسعت إلى أكبر قدر ممكن، رأيته، كان هو، المعيد المساعد للدكتور المسؤول عن مجموعتي، ابتسم لي أنه عرفني وأنا دارت بي الغرفة، كأن روحا اخترقتني وانضمت لروحي.

ثم بدأ الدكتور يعرِّفُ عن نفسه وعن ماذا سنفعل، وأخبرنا بشيء أراحني وأزعجني ربما كما غيري من الذين يودون التعلم ومجابهة الأمر للتعود عليه. "أننا لربما بهذا الفصل لن نقوم بتشريح جثة بشكل دوري كما هي العادة والسبب أن مادة الفورمالين3 المسؤولة عن التحنيط قد ازداد معدلها في بيئة مبنى التشريح هنا وهذا خطر ومؤشر لاحتمالية الإصابة بالسرطان للمتعاملين معه" حصلنا على أوراق وُزعت على التوالي، وتقسمنا لمجموعة من ثلاث، كان علينا أن نهتم بدراسة سؤال وقسم معين وتحضيره بشكل فريق ثلاثي لعرضه في غرفة

[3] فورمالين: فورمالدهيد، مركب كيميائي يستخدم في حفظ الأعضاء البشرية من التحلل

السيمنار أمام الطلاب، وبالتالي نستفيد بماذا بذلوا وتعلموا ويستفيدوا هم منا أيضًا، كان الموضوع
بالنسبة لي موترا أكثر بكثير من تشريح جثة، لكني همست لنفسي تستطيعين.

اسمي كان واضحا على بطاقتي المعلقة "إيلياء آدم **Elija adam**"، وهو اسم لا يخبر بأصلي وعربيتي إن قُرأ بالألمانية حيث سيُقرأ "إيليا"، وهو اسم متواجد بنطق الجيه أيّ كمثال "جوليا" تقرأ "يوليا " واسم أبي أيضًا موجود في أوروبا بطبيعة الحال .

أما اسمه الذي عرف به، والذي كُتب بالكامل على البطاقة على صدره، وتقاسيم وجهه التي لا تخطئ أصلها وجمالها وقوتها ولا أنا لم يخطئها قلبي، غير أنني سمعته في القطار، أنه عربي.!.

اقترب مني خلال الدرس وسألني أتحتاجين المساعدة، أجبته "لا شكرًا كلّ شيء على ما يرام".

وعندما حان موعد نزولنا إلى غرفة " السيمنار "وعرض عملنا، كنت واثقة من نفسي ومستعدة وفهمت كلّ الذي رأيته وشرحت جزء لمن معي، شابة جميلة تركية تدعى "دينيز" وشاب ألماني لطيف يرفع نظّارته الكبيرة باستمرار وينظر من تحتها، "جورج".

لكن عندما وقف ثلاثتُنا لعرض ما تعلمناه، وكان يقابلني، يكتف يديه ويمد قدميه ويضع واحدة فوق الأخرى على امتدادهما والغرفة مليئة بقرابة عشرين شخصًا، وما إن بدأت ارتبكت ونسيت كلّ شيء ولم أعرف حتى كيف أنطق،

فغطت عني زميلتي التركية، الموقف كان محرجًا ووجهي أضحى أحمرا وغرقتي تعرقت كثيرًا .

قد يبدو أن هذا حدث بسببه، بتاتا لم يكن له تأثير، الموضوع أكبر من هذا، أنا واجهت ضعفي أن أقف أمام مجموعة وأتحدث، وقوتي وعنادي الذي كنت أتباهى بها كانت افتراضا داخليا وفي الممارسة الحقيقية الأولى كنت فاشلة في تطبيقها، واجهت قلة ثقتي بنفسي لأول مرة!، جلست وأنا منكبة على نفسي وأنتظر بفارغ الصبر أن ينتهي وقت العرض لأركض إلى القطار وإلى غرفتي وأنام.

انتهى العرض وعند محاولتي للخروج سريعًا، ناداني الدكتور، "هل لديك أسئلة، لا تقلقي إنها رهبة المرة الأولى، الفكرة ليست بالعرض والشرح الفكرة بطرح الأُمور وتبادلها مع بعضكم، هذه طريقة فعالة بالتعلم وتتثبت بالذاكرة أفضل، ما هو رأيك "علي"؟"

- "أنا متاكدة أنها ستكون من المميزين عندنا، " قالها وهو ينظر إليّ بشكل مباشر كأنني منتصف هدف أمامه ويركز فيه.

-"أتقصد كما أنت؟، " قالها الدكتور فضحكا، هززت برأسي وقلت فقط:

-" شكرا، وداعا "

نمت يومين كاملين، الجمعة والسبت، لم أغادر فيهما السرير تقريبًا رغم محاولات جدتي، كنت مصدومة من نفسي لمَ هذا الرهاب والخوف؟ أين هي قوتي التي كنت أتباهى بها مع نفسي، أُيعقل أن أصدم وقت محاولة استعمالها؟ لقد أحسستُ بالضعف والهشاشة والغباء والعطف من الدكتور المشرف ومن هذا

الشاب المتعجرف، وقررت أن أمسح أيّ تفصيل عنه وانبهاري بيني وبين نفسي به، خصوصا ما تملّكني عندما رأيته أول مرة وحديثه، ومع هذا كلّه قضيتُ الليل طوله أتعارك مع شرشفي في محاولات فاشلة لمنع التفكير به.

في صبيحة يوم الأحد نهضتُ باكرا ونزلتُ إلى المطبخ، كانت جدتي على طاولتها الخشبية تتفقدُ الصحيفة وبروشورات الإعلانات وتحتسي قوتها:

- صباح الخير جدتي.

-صباح الخير، أتريدين القهوة.

-أنا سأُحضرها وأُحضر الخبز، أتريدين أكل المربى والزبدة معي؟

- نعم، لا أمانع، اشتقتُ للفطور معك.

وبعد أن أنهينا فطورنا بهدوء شديد، فقد أكلتُ بنهمٍ كبير:

- ألا تريدين التحدث؟

-عن ماذا؟

-" لقد بقيتِ في غرفتك ليومين، وكنت أعرف أنك لستِ بحالة جيدة، ولكن تركتك لوحدك كما كنتِ وأنتِ صغيرة عندما تغضبين، تركضين لغرفتك وتجلسين وحدك ساعة ثم تنزلين إلينا وتتعذرين أو تتحدثين معنا حتى نُصاب بالصداع من سردك وينتهي الموضوع، أما الآن أراكِ قد كبرتِ وبقاؤكِ بغرفتك أصبح يومًا كاملًا وربما يغدو أكثر، وحتى عندما خرجتِ لم تخبريني بشيء وأجدك حتى لا تريدين الحديث، فما خطبُكِ؟. "

بعد أن قالت هذا صمتُّ وفكرتُ كثيرًا وتملَّكني غضبٌ غريبٌ لم أشعر به من قبل، وكانت نبرتي عدائية:

- أتعتقدين بعد كلّ الذي مررتُ به، سأبقى "إيلياء" الطفلة نفسها بكل تفاصيلها؟ الزمن يمر وأنا أيضًا أمرُّ من خلاله ويترك فيّ آثارًا ربما لا تمحى.

-لكني لم أقصد هذا.

- أعرف جدتي وأنا أُقسم لكِ أني لم أقصد شيئًا، لكن لا أريد أن أشغل بالك، كل ما حدث أنني أشعر بالعجز، الفصل الأول كان جيدًا ومرَّ مرورا آمنًا، ولكن أعرف أني كنت كالذي يمر بجانب الحائط ويبتعد عن أيّ شي يعرقله أو خائف من أيّ موقف وتعامل بسيط حتى. فهمت هذا الآن فقط! ألم تلحظي أنني لم أكون صداقات حتى، وأني أعود مباشرة بعد دوامي؟، وفوق هذا، أنا أجلس في وقت الغداء لوحدي وأشرب القهوة كالطالب المنبوذ في الأفلام الأمريكية التي نتابعها سويا.

درس التشريح كان سيئًا جدًا رغم أنني عملتُ مع مجموعة صغيرة لطيفة ودرسنا سوية وفهمنا كلّ شيء وأحسستُ أن الفتاة التركية لربما ستكون صديقتي في الجامعة وبهذا سأتواصل أخيرا مع أحد، واعتبرتُ أن كلّ شيء مضى بخير، إلى أن وصلنا إلى القسم الأخير الذي يُفترض فيه أن نقف أمام الجميع لنعرض ما تمت دراسته، فقدت قدرتي على الكلام وأحسستُ بارتجاف الورقة في يدي وضعت بين كلّ لغاتي، لا أستطيعُ نطق كلّمة، و شعرت لو أن الأرض تنشق الأرض وتبتلعني فعلا من مكاني ذاك.

-"إيلياء"، طبيعي أن يحصل هذا كأول مرة.

- لا جدتي أنا القوية والتي كنت أتفاخر بنفسي وأعلق على كلّ من حولي أنهم ضعفاء وأن عليهم أن يكتشفوا الحياة، ورغم قناعتي ووعيي بذلك بسبب الذي مررت به، إلا أنني اكتشفتُ أنني هشَّةٌ في أول مواجهة لي، وأنني كنت أمارسُ فقط فن الانتقاد! وأن أكتشف هذا وأحاول أن أتخلص منه هو أمرٌ مهمٌ بالنسبةِ لي، أنا لا أريد أن أبقى هكذا هشَّة في المرحلة القادمة في حياتي يكفي ما مضى، ولا أريد أن أسمع كلامًا يواسيني، أريد أن أُواجه مشكلتي وأحلها، أنا أمتلك فرصة، ومُهيَّأٌ لي كلّ شيء لأكون شخصًا قويا.

-"إيلياء" انظري إليّ، أتعرفين كم أنا فخورة بك وأنا الآن أكثر وأكثر؟، أعرف ما الذي تمرين به وصعوبته وحساسيته بالنسبة لك، ولكني أيضًا مع قرارك عليك أن تواجهيه بنفسك، وتبحثي عن مصدره داخلك. علينا فعلا أن نواجه عيوبنا، أنا أستطيعُ أن أقول لك الكثير وتعرفين أنني بجانبك دومًا من ولكن هذه الأُمور بالاولوية تحتاجك أنتِ، "القوة التي تنبع من داخلنا تستمر والدعم الذي نحصل عليه من أنفسنا لن ينفد ويخذلنا أبدًا. "لذا أريد

أن أقول لكِ فقط أنا أُؤمن بكِ والذي حصل لربما عرقل قدمك فسقطتِ ولكنك ستنهضين أقوى، "النجاحُ يعتبر نجاحًا بعدد مرات الفشل التي لم يستسلم فيها الشخص وفي النهاية وصل أبوابه، تذكري أن أبواب النَـجاح لا تَـستقبل مَـن يَـطرقوها طَـلباً لـهَا، وإنما تـؤمن بِـمبدأ الاقتِـحام. "

زارني مشهد أمي عندما طوقتها وحضنتها من الخلف، وفعلا نهضتُ من كرسيّ ولففت جسدها الرقيق بين يدي وقبلتُها حتى اختل توازن نظّارتها وأنا أعتصرها:

- يبدو أنني فقدت دلال خبزك الطازج، لذا أنا اليوم من سأصنع الخبز، أين هو كتابك الكبير الذي كنت تسرقين وصفاته لنا؟، كنت أراقبك وأنا صغيرة واكتشفتُ أمرك.

ضحكت وأعطتني إياه، تلك هي كعادتها تستطيع أن تنسجَ حولي هالةَ سعادة، ومن خلالها وخلال الذين يشبهونها في حياتي، كنتُ أُحافظ على أن أُحيط نفسي دومًا بالذين يستطيعون أن يخلقوا السعادة من أيّ شيء وبدون مقابل ولا حسابات، "كارما الحياة الخاصة بي قررت أن أرسمها بأشخاصي الذين يعدون على أصابع يداي فقط"!.

لكني فعلا ورطت نفسي يومها بخبز يشبه محاولة صنع اسفنج قاسي وبيوم ضاع نصفه بتنظيف آثار جريمتي وتناثر الطحين في كلّ مكان.

كانت جدتي تجلس على أريكتها المستفزة بمدى الشعور بالراحة عند الجلوس عليها، والتي حركتها باتجاه المطبخ وهي تراقب وتنتقد وتلوم نفسها كيف سمحت لي، فالتفتُّ لها وأنا أعصر عيني وأُمسك بخصري:

- أعطيتِني الكتاب الخطأ أعرف هذا، صوت ضحكها الذي كان ينتهي بانقطاعه وفقط احمرار وجهها وهي تهز كتفيها، كان يساوي جدران بيت فيه أب وأم واخوة

"

صعدت إلى غرفتي وجلست أمام المرآة وحاولت أن أستحضر ماذا حدث وما السبب، تمرنت على الحديث قليلًا وصححت زاوية ثقتي بنفسي قليلًا وابتسمت لها: "دخلت إلى فراشي ورغم محاولة نومي الباكرة لأكون على موعد الدرس في تمام الثامنة، إلا أنني قضيت أكثر من ثلاث ساعات في سريري لم أقرا فيه أكثر من ثلاث صفحات وأمضيت بقيتها أُحدق في السقف وأُفكر، مرَّ وجهه أمامي فابتسمت، وحاولت إبعاده عن تفكيري لكني لم أفلح، فهمست لنفسي: "علي، الجولة القادمة لي!" وابتسمتُ وغططت بنوم عميق.

قابلت "دينيز" أمام قاعة المحاضرة وأحضرنا قهوة سويا، بدأ الأسبوع جميلًا وكنا يوميًا نقضيه معا حتى في الاستراحات ووقت الدراسة في المكتبة، وقلت لنفسي: "حسنًا، يبدو أن الأُمور ستغدو أفضل مع الوقت، هيا تفاءلي سيجلب التفاؤل لكِ كلّ شي ء جميل، ويكفي أن طيف التوحد في هذه الجامعة فارقكك بوجود "دينيز"..

في صباح يوم الجمعة التالي، وعند انتظاري لدوري كالعادة وسط حشد الطلاب، لمحته يلوح لي بيده وهو ينزل من على الدرج، ورغم أنني أردت لو أُلوِّحُ بيديّ الاثنتين له، لكني تظاهرت بأني لا أراه، كنت مقتنعة أنه يحاول أن يساعد فتاة ضعيفة، بشكل أو بآخر تلميذته حتى لو كان طالبًا في سنواته الأخيرة ومتعجرفًا!.ركبت القطار وجلست وخلفي تمامًا كان الزجاج الفاصل لفسحة باب القطار عن المقاعد، التفتُّ فرأيته واقفا ويده تمسك بطرف الزجاج المعدني

ورائي تمامًا ووظهره لي، القطار دائمًا مكتظ صباحا وجميعا نفضل الوقف وألا ننتظر أربع دقائق أخرى ، الحصول على مقعد رفاهية صباحية للجالسين!
عطره بات أقرب، أو لا أستطيعُ أن أُعبر عنها بأنها رائحة عطر، أنا أشتم التفاصيل التي تصل إلى مسامات الشخص، وسمعت صوته باللغة العربية مجددا ولكنته الجميلة:
"أحتاج لعشر دقائق، انتظرني عند باب صف التشريح الأمامي وسأعطيك الملف."
متعة أن أفهمه من دون أن يدري، وأن أعدُّ له طبقًا دسمًا من مفاجآتي القادمة، صحيح أني فاشلة في خبز الخبز، لكني محترفة في صناعة اللحظة، واللعبة التي تنتظره هي متاهة لها باب واحد يخرج منه وهو بابي.
وصلنا محطة الجامعة، بدأ رذاذ من المطر الجميل يتساقط، والحمام على أرض المدخل الطويل كجسر للجامعة يتناثر في الهواء، وصلت إلى صفي ومضى اليوم جيدًا كما الأسبوع الفائت وراقبته وهو يشرح بيديه المكتنزتين تحت الرداء وبنهم للطلاب ويجب على أسئلتهم، ويتهامس مع الدكتور ويضحكان لم يكن صغيرًا بالعمر، وأعتقد أن هذا سبب من أسباب علاقته القوية معه، وخلال هذا كنتُ ألمحُهُ ينظر لي، وأعرف تعجبه من عدم سؤالي له أيّ شيء كبقية الطلاب ورفضي لمساعداته المتكررة.
حان موعد القسم الأخير، وحانت المواجهة مع نفسي وجها لوجه، كان لدي خيار واحد أن اثق بنفسي:

فبدأت بالحديث، لغتي الألمانية القوية كانت صادمة للجميع، أعتقد أن الألمان الذين كانوا معي اعتقدوا أنني حديثة عهد باللغة بسبب التأتأة التي حدثت في المرة السابقة. بعدما أنهيتُ جزئي تعرضت لسؤال من الدكتور على غير عادته فقد رأيت "عليّ" يؤشر له على ورقته، ورغم هذا أجبته بشكل تام وصحيح وابتلعت ريقي بقوة فأحسست كأنه غيث مطر لحلقي الذي كان يرتجف خوفا، وعندما جلست، ابتسم لي عليّ بعدما فك قيد يديه وانحنى بجسده ليتكئ على الطاولة.
انتهى الصف وخرجنا، وكنت كالذي خرج من المعركة منتصرا، فابتسمت له، اليوم يومي وسأصبح كريمة بعض الشيء، ونحن الآن على نفس الجبهة، " وإن كنت مغرمة بتفاصيله، لكنه غريمي بالحب وبالطب".
قال وداعًا فأجبته وانطلقت مع دينيز كأني فراشة تحلق ومشيت مشية غبية كنت كالأرنب الذي يقفز عن الأرض، أكلنا الشاورما التركية الذيذة وبإضافة الصوص الحار إليها وأمضينا وقتًا جميلًا مع بعضنا.

عدتُ إلى المنزل، وفتحتْ لي الباب جدتي أخذت أُقبلها بقوة ورميت حقيبتي على الأرض، ونزعتُ عنها نظَّارتها ووضعتُها على طاولة المدخل البيضاء الصغيرة، ووقفت أمام المرآة أُراقصها وهي تضحك وتقول "ما بك ما بك؟ ياليوم الجمعة! ما عدتُ أفهمُكِ!، الذي مضى لم أرك فيه وهذا كأنكِ ربحتِ ورقة اللوتو؟ ماذا هناك؟"، أجبتها وأنا أراقصها:

- لا، كوني جيدة يا جدتي، اللوتو ليس جيدًا، لقد نجحت اليوم أمام نفسي، ولم أتوتر، هذا هو الربح، كسبتُ نفسي!

بعد انتهاء مراسم الاحتفال المبالغ فيه مني، سألتني هل أود أن آكل، فأجبتها وأنا أمارس طقوس غريبة وأنا أصعد الدرج لأعلى:

- لقد أكلت الشاورما مع دينيز وبالكثير من الحار ولن تؤلمني معدتي تأكدي، وسأقول لك سرا، أنا أُخبئ أكياس الفلفل في محفظة نقودي أيضًا.

كانت ترفض أكلي للأشياء الحارة خوفًا عليّ، كانت تخاف بشكل مفرط لربما ألا تفقد مجددا وفعلا كنت أخبئ - أو إلى الآن- أكياس الفلفل في محفظتي وأضيفها من دون أن تدري.

أعتقد أن وضعية الهجوم في بدأ العلاقات طبع لدي، فأفترض سوء النية حتى يثبت لي العكس، طبع سيء ومجهد لربما، ولكني أحمي نفسي دومًا به، وأستطيعُ أن أُوازن، فلدي حسن ظن بنفسي وبالحياة وبالذين أدخلتهم حياتي بشكل حتمي.

وهكذا كانت الوضعية الأولى مع علي، رغم البداية السيئة واللئيمة مني، ومراقبته واستكشافه والاستمتاع بفضل فهمي لكل أحاديثه من دون أن يدري. إلا أن علاقتنا مع الوقت أخذت تتحسن وأصبح يشاركنا أحيانا الذهاب لإحضار القهوة في الاستراحة ونجلس ونتحدث عن بعض العضلات والأسئلة التابعة للمساق، وأصبحنا مع مرور الوقت أقرب وأقرب كشخصين، فسمعت أحاديثه الجميلة مع

أمه على الهاتف ومناقشته لها وحفظت أسماء أصحابه وأخته وأخوه وأطفالهما من دون أن يدري بفهمي للعربية.

في مرة دينيز غابت عن الصف، وكان اليوم الأول الذي يشاركني فيه القهوة لوحدنا، أصرَّ أن يقدمها لي فرفضتُ ووضعتُ له ثمنها على طرف الطاولة عندما جلسنا، ابتسم وقال:

- أوه، أول هدية منك لي، عملة اثنان يورو لربما تصبح ثروة بعد سنين.

ابتسمت، وكيف لا أبتسم لكتلة من إنسان كلّما تحرك حولي وراقبت كيفية حديثه، وشرحه بنهم للطلاب وجلسته المميزة بعقد يديه جيدًا مع بعضهما كأنه يخاف أن تهربا. ولنظرته الثاقبة التي لا تتحرك أيّ عضلة في وجهه بسببها، ولا تغير مقاس عيناه، وتتضح أكثر الخطوط الجانبية لعمر عيناه فتحيل بكل شيء حولي متجمدًا لا يتحرك إلا بؤبؤ عينيه فيضيق ويتسع وهو يتحدث. كان الرجل الذي يستطيع بتصرفاته وردود أفعاله غير المتوقعة أن يرفع الرايات البيضاء داخلي في كلّ مرة له فقط. "

قال لي وكان أول حديث عميق وخاص بيننا:

- لاحظت أمرًا مهمًا، إنك تشربين القهوة على مهل ولوقت تصبح فيه في أغلب الأحيان باردة.

-أنا أحب أن أشربها ببطءٍ ومن دون سكر، أشعر بها أكثر، حتى أنني أحتاج أن آخُذَ نفسًا عميقًا جدًا وأنا أراقب شخص يشربها بسرعة، كأنت. "أذكر تشردقه بقهوته عندما كان يسمع كلّماتي هذه وهو يرتشف رشفته الأولى منها"

ضحكتُ وحاولتُ أن أبحث عن شرح مبسط له، وتمنيت لو أستطعت أن أحادثه حينها بالعربية ولكن لم يحن الموعد! فأكملت وسط صمته ونظرته التي أحب:

-أَنا أَعتقد أنه الـوقت المُـناسب والسِـرداب الأسود تمامًا كلّـونها الذي نَـحتاجه، يوميًا لِـندخل إلى دَواخلنا وَنتحدث ونتزن قليلًا بعيدا عن الضوضاء، وعلى فكرة "إن أعظم الأشخاص في حياتنا هم من يحق لهم أن يشاركونا هذا الفنجان مِرارا حتى أعتقد أنني أبوح بأكثر من عادتي دومًا عِندما أشارك أحدًا كوبا من القهوة، حتى وإن كان مثلُكَ عابراً"

- أنا عابرٌ؟

- إلى الآن هكذا، ما سيحدث بعد ذلك لا نعرفه كلانا، وجميل أن دينيز ليست هنا وإلا قالت لي: "إيلياء" أنت تتعمقين كثيرًا، خذي نفسا وامضي من دون تفاصيل وتفكير مستمر، هيا!!"

فاليوم كنت حرة قليلًا لأتحدث عن فلسفتي الخاصة المقيتة ربما معك ولكن أُقدِّر لك أنك سألت وتحملت واستمعت.

-بل أنا من المغرمين بطريقة حديثك، هل لي بتكرار أحاديث القهوة؟، أعتقد أننا سنتحدث في كثير من الأُمور وربما نتجادل، كوننا من خلفيات مختلفة أنا عربي من العراق وأنتِ تركية ونعيش في بلد ثالث، الحديث غني جدًا بيننا!.

-من أخبرك بأنني تركية؟

-لا أدري، افترضتُ ذلك، فاسمك لا يوحي بأنه ألماني، ومن رفقتك لدنيز ظننتُ أنك تركية مثلها.

ابتسمت:

-فعلا أنت تحتاج لأحاديث قهوة كثيرة وهناك مثل تركي يقول: "فنجان قهوة قد يحفظ المودة أربعين عاما"، أما الآن فتفضل، الدور لك لتملي علينا باقي دروسنا -القادم أعظم في الفصول القادمة وسأحرص أن أبقى المعيد .

-أتعني أن الحظ سيبقى نفسه؟

ابتسم وأعتقدُ أنه قد بدأ يفهم أُسلوبي، وأنا بدأتُ أفهم لماذا لفتني من أول مرة، هو شخص لديه توقيته الخاص، لا تستطيع أن تتكهن بعمره ولا بأي شي يخصه غير أصلِهِ، له طريقة تستطيع أن تصل لمرادها ببطءٍ ويستطيع أن يفهم الشخص الذي يقابله بمراقبته له وبردود افعاله، حسنا لربما نشترك أنا وهو بالأخيرة. فهمت ذلك وبتعلق كبير به مع كلّ خطوة منذ أن تركته حتى دخلت للمرحاض قبل العودة للصف لأرتب شعري، ونظرتُ في المرأة فوجدتُ احمرارًا بوجنتي يشبه طفلة كانت تختبئ تحت ستائر البيت وتوردت من حرارة الاختباء، وكنتُ أحاول أن أُخبئ عنه الكثير مما أشعر وأقامره برهان الأحاديث وبمفاجأتي القادمة له، لكنه كان مستفزًا بابتسامته التي أفقدتني تركيزي وأنا أقومُ بعرض ما تمت دراسته وبعبئين عني وعن دينيز، لكنها كانت من اللحظات التي سجلت بذاكرتي وجعلت "روحي المبتلة تزهر بطرف منها، فلقد رمى بذورًا من ابتسامته داخلها فأزهرت بتفاصيله ".

الساعة أشارت للثامنة وربع قبل بدأ الصف الأخير قبل الامتحان الشفهي ورغم أنه يومها كان سيبدأ في تمام التاسعة والنصف، إلا أنني كنت أجلس

منتظرة على طاولة من طاولات الدراسة خارج قسم التشريح وأمامي كوبان من القهوة الساخنة.

لقد بعثت له بايميل أطلب المساعدة في فهم بعض الأُمور وشرحها لي ولدينيز واتفقنا على الثامنة ونصف كموعد مناسب أن نلتقي.

في لحظات الانتظار كنت أشعر بسعادة لها رائحة لذعة الغرور والخبث الجميل، وأنفاسي تحاول أن تتزن وأنا أكرر لنفسي "اليوم سأهز روحه وسأتفرد به وأنا أراقب البرق والرعد فيه كما حصل لي أول مرة، وسأتحرر أخيرًا من حديث اللغة الألمانية، أريد التحدث بالعربية فقط معه، وأحادثه عن كلّ شيء حتى خيبات الوطن والفقر والمرض وعن القدس، وعن حربي وحربه وعن ما جمعنا هنا". وصل قبل الثامنة ونصف، رأيته يسحب الباب الزجاجي الضخم فاستعددت، لوح لي:

- "إيلياء" صباح الخير، يبدو أن دينيز أيضًا وصلت أرى كوب قهوتها.

- هذا لك علي، دينيز لن تحضر.

ابتسم ابتسامة مغرورة، يبدو أنه كان يرى نفسه قد انتصر عليّ من دون خسائر فضم شفتيه بقوة للداخل ووهز برأسه وهو يحك ذقنه:

إذًا لقد حظيت بموعد قهوة وصباحي أيضًا، ويا لحظي مع "إيلياء"، الشابة التركية الجميلة القوية!!

" أن تشعر باللذة قبل تحقيق لشيء وتترقب نتيجتك التي ستعلن كان إحساسي لحظتها تمامًا، أكملتُ بالألمانية"

-أريد أن أخبرك بأمر مهم.

- هيا أسمعُكِ، "وارتشف قليلًا من القهوة، فكان التوقيت الذي أريده"، وبدأت أتحدثُ عربيتي:

- أنا "إيلياء" من فلسطين، مولودة في القدس وأتحدث العربية الفصحى والشامية وأفهم جميع اللكنات العربية ومنها العراقية!

وبهذا أتممتُ مهمتي وبتوقيتها الصحيح أثناء ارتشافه لقهوتك، أنقذه تكهني الصغير بتحضير مناديل في حقيبتي، فاستخدمها بعدما مددتُها له.

-هل كنتِ تفهمين ماذا أقول على الهاتف؟

-نعم صحيح، "أجبته، كان أحدًا يشك لي ريش طاووس حولي "

-وهل كنتي تعرفين أني عربي؟

-من أول يوم.

-أنتِ. . . أنتِ. . . . لا شيء، على العموم الآن سأتحدث براحتي ولن أُتابع الأفعال الألمانية والفعل في آخر الجملة وسأغلق فلتر اللغة لكن اعتبري أنني سأدفعك ضريبة.

-ماذا؟

-أحاديث قهوة كثيرة وبالعربية , أي يمنع التكلم بكلمة واحدة ألمانية !.

- إذًا أنت اليوم حصلت على جرعة الكافيين كاملة مني، ولطفا أخبر الدكتور أن عضلات الأصابع لن تضيف لطالب عام الآن شيء، ولو قررنا التخصص بجراحة هذه الأمكنة أعده أن أدرسها بالتفصيل الممل، هو يعرف أن الأهم هي عظام في

اليد، حتى لا يسأل عنها لم أحضرها، وعرفنا أنك من أضافها على عكس المجموعات الأخرى التي لا تتضمنها، وتركته غارقا في ماء كلامي كلّه.

مرَّ اليوم كالأسبوع الفائت مع إرشادات الامتحان وتوزيع الأسماء والأوقات، الفرق أن عليّ كان طوال الدرس كمن يتحسس آثار صفعة على وجهه

ليلتها بعدما تناولنا العشاء سويًا أنا وجدتي وتحدثنا عن يومنا، صعدت إلى غرفتي، وبدأت أُحدق بالسقف، كنت أعرف أن عليّ يتملك جزءًا مني ويمشي ببطءٍ داخلي لكن بقوة كأنه سيلُ ماء يغزوني كأرض قاحلة قبله، ورغم تصرفاتي الباردة أحيانًا كثيرة ومناوراتي كطفلة له.

"ولكني أعرف أنه لو أزاح قوتي التي أتكئ عليها؛ لهويت ضعفا وتورطا به.

"علي كان من اعترض موكب الحياة المحدد لي، من جعلني أمارس العصيان على قناعاتي، أنه لا وقت للحب"

الفصل العاشر

موعد بتوقيت المطر

"فلتطمرني الحياة جسدًا من دون مظلةٍ معه"

دوسيلدورف، DÜSSELDORF - ألمانيا

في بداية سبتمبر كنت قد أتممت عامي العشرين منذ أيام، وحل الخريف، فصلي المفضل، أصوات الريح وتغير الألوان تحت مطرٍ فنيٍّ يستحي أن يصبح قويا ويباغتنا بقوة، وأصوات الورق الذي يرافق خطواتنا فلا تشعر بنفسك وحيدا، والجلوس تحت شجرة كأنها ترمي أوراقها لك كحديثٍ تخبرك فيه عما مرَّ في الفصول وما أوجعها وما أفرحها فتحكي عن قصصٍ لكثيرين باحوا بها تحتها ولقاءات اكتملت فكانت البداية أو الفراق. وعن كبيرين بالسن كانا يمشيان دومًا في هذا الطريق لأعوام ويأخذان استراحة تحتها، لكنهما لم يعد يزورانها وغابا.

أتذكر في هذه الصباحات موسيقاي المفضلة الأولى لـ "ريم بنَّا" التي عرفني عليها عمر، وأبحث فيها عن كوبي المفضل لأمي، أعد قَـهوتي ببطءٍ كما أحب أن أشربها ببطءٍ أيضًا، وأُحافظ بحذر على تلك الرَغـوة المُـتناثرة على وَجهها، كأَن الذكرى حَلّت ضَيفي فيها والصور القديمة تفترش الطاولة الخشبية أمامي. .

وبـين بَعثرة الصـور في ذَاكـرتي، وَشريط التَحميض المستمر لَـها، يُـباغتني المطر وَيكتمل المشهد فأُقاطع الذكرى وأقف أمام النافذة وأفتح دفتيها، أدعو لأرواح إن غابت ما زلت أشتمها في ثنايا القلب وفي الطريق الذي اخترته حيث أراهم أضواءه المنتاثرة على جانبيه.

كنت أكبر من عمري، ومقيتة بعمقي، أعرف هذا، لكن كيف لا يحدث هذا، وأنا خضت حرب الإنسان مع المرض، وحرب الوطن، وحرب الفقد، وحرب العائلة، وحرب الهجرة من بيت إن لم يكن وطن.

وزامنت قصص أكبر مني رغم أنها كانت مصدر إلهام لي، ورغم هذا كلّه كنت ممتنة جدًا للحياة وكنت أعرف أن لدي امتيازات فيها .

فكنت مرارا أُكرر لنفسي :

" بأن الله يأخذ ويعطي , أنني أستطيعُ أن أختار طريقي. "

أفكر بذلك فيغدو كلّ ما في أفعال امتنان.

موعد الفصل الجديد اقترب في أُكتوبر، والأمر إن لم يكن معلن وغير محدد، لكن عليّ وأنا لم نعد نبدوا كأصدقاء عاديين، يوميًا كنا نتحادث ولو برسالة، وكان قد أخبرني أنه سيتابع مساق التشريح لي، "وأن ثلاثةَ عشرَ موعدًا للقهوة معي مؤكدة ومثبتة فلكيا"، كانت له تعابيره الخاصة وكانت لهجته تضيف لها جمالا وعفوية وطبيعية وقوة.

كنتُ أصف له أن الأصدقاء هم أعظم الأشخاص في حياتنا، وأنهم بناءً على ذلك يتحولون، وهذا التحول ربما يكون خاصًا، ولكنه بالتأكيد على أساسٍ قويٍّ، حتى الطفل يرى أمه وهو صغير كأنها صديقته التي يعتبر أنها تحبه فقط إن كانت تقضي الوقت مع وتلاعبه وتفهم ما يحب ولا تعترض على ماذا يريد أن يأكل، وعندما يكبر يبني على كلّ هذه اللحظات والمشاركات له معها، أنها أمه وصديقته واختزال عالمه.

في أثناء حديثنا هذا باغتني لأنني ذكرت كلّمة أم أمامه بالتأكيد:

- أتشتاقين لأمك؟

- ما رأيك؟

-أعرف أن سؤالي غبي ولكن أريد أن تتحدثي عن هذا، الضعف يا "إيلياء" ليس عيبًا والدموع لم تكون يومًا أمرًا يخص كبرياءنا، البكاء يغسل القلب وأنتِ ك"إيلياء" تحتاجين فقط أن تقصي شريط مشاعرك وتطلقي لها العنان، وأتمنى أن أكونَ مدعوًّا في حفل الافتتاح هذا وأرضى أيضًا أن أحمل لك المقص على وسادة مخملية.

-علي!

-نعم.

-إن لك رائحة روح!

- يبدو أنني أحتاج دينيز لتوقف تعمقك، بجدية شكرًا لأنك وصلتِ لروحي.

- ذكرني عندما نتشارك القهوة أن أُخبرك عن نظرية أقتنع بها.

- هل لي بهامش أو عنوان للنظرية؟ لربما أبحث عنها حتى لا أغدو جاهلًا أمامك.

-عللللييي، ليست علمية أيها النرد.

-ليكن هذا، هو على الأقل سبب أنني أُرافق طالبة مبتدئة في دروسها وأعيد أشياء مقيتة كنتُ قد تخلَّصت من ضغطها ودراستها وأُحاول أن أبقى معيدها.

-لست مضطرا

- بلا، إلى اللقاء في حديث قهوة جميل إلى أن تبرد نصف قهوتك، تصبحين أنت وجدتك على خير.

بدأ الفصلُ الجديدُ، وفي موعد الصف الأول وبعد ملاحظة الكثير لحديثنا بلغة واحدة وإسقاطه على سبب علاقتنا القوية، وتعليقات دينيز المتكررة:
"متى ستنزل الترجمة رجاءً؟ أم هل أُحضر قاموسًا معي؟".
فعلا عايشت خلال تلك الفترة أوقات جميلة عفوية تشبه الحياة الطبيعية العادية لفتاة من دون شوائب ماضي ولا خوف ولا طيف توحد كعادتها قبلا، كانت بالتأكيد من أجمل محطات حياتي الانتقالية رغم الضغط والهلاك الكبير الذي كان يمتلئ به الفصل الدراسي.
وفي يوم الخميس بعدما تغير موعد التشريح في هذا الفصل الجديد، وكان يوم الجمعة مقررا كعطلة في جدولنا، فحصلنا على نهاية أُسبوع طويلة، طلب مني عليّ لو نجلس بمقهى الجامعة الرئيسي أو التابع للمكتبة، لنأكل سويا فوافقت.
كان أول موعد لنا لنعتبر ذلك، رغم أن ما كان في مضمونه مختلف عمّا يتوقع أيّ شخص من وجود شخصين يجلسان على طاولة بشكل متقابل ويعلقان معطفيهما بنفس الطريقة خلفهما على الكرسي ويتضح أنهما منفصلان بالحديث عما حولهم كأنهما بعالم آخر، كأي شخص يدخل في" *تركيبته الجينية شيفرة تعود لأصل عربي، الحرب سترغمه على أن يتحدث عنها حتى في أصفى اللحظات وأعمقها*"، فكيف بفلسطينية عاصرت كلّ شي بتفاصيله وبوعي وبصدمة وليس

بشكل بدهي مُسلَّم به، وبعراقيّ غادر الوطن ولم يغادر الوطن روحه، وكل ما تركه وراءه من مزيج من الحرب والخراب، غادرها يحمل معه بطاقة سفر كطريق باتجاه واحد يمنع عليك أن تقوده بشكل معاكس!وخط الرجوع فيه بلا اشارات .!

كنتُ أستطيعُ أن ألْحَظَ طيفَ الوجعِ الذي يمرُّه وشوقه وبحثه في الذاكرة عن تفاصيل أمه ليجمعها على هيئتها الكاملة، عندما يتحدث عنها فتغدو عروقه واضحة وبارزة وخاصة العرق في زاوية جبهته اليسرى الذي يظهر كلّما اشتد غضبه أو توتره أو تعبه أو حديثه بعمق معي.

أخبرني عن وجع بلده منذ القدم وكيف تلون نهرا دجلة والفرات عندما تعرضت للهجوم من المغول، فقتل بسببهما مليونا شخص حتى تحول للون الأحمر ولم يكفهم هذا، كانوا يعرفون أن هذا الشعب مثقف والكتب قوته كما الطعام وهذا من أسباب قوته فألقوا بكلّ الكتب والمجلدات في النهر حتى تحول من الأحمر إلى الأزرق أيّ بلون الحبر.

كنت أستمع كتلميذة معجبة وهاوية في تفاصيله، أن تسمع التاريخ من حفيد بلد، سيساوي مجلدا تاريخيا له داخلك، وأنا كنت تلميذة لوطن آخر كما القدس لمعلم كما معلمي الأول عمر.

أخبرني عن حنينه لأمه وللطعام الذي تعده وخصوصًا ما يسمى "بالدولمة"، تعبير غريب أنا لم أفكر يومًا أنني سأشتاق لطعام أمي كنت أشتاق لأشياء أخرى، ولهذا كنت مبهورة بتعبيره، وتحدثنا عن اسمي وعن"لقب الكنعانية الصغيرة" وكانت

المرة الأولى التي شرحت فيها بنفسي القاعدة التاريخية له واختلاف اسمي ولقبي، فكان اسمي من عهد ولقبي من عهد آخر.

"تحولت حينها وأن أشرح له لمعلمة التاريخ التي ترتدي نظارات وتمسك بعصا وتشرح" وقاطعني تلميذي:

- عرفتُ من أين ورثتِ عنادك يبدو أن في رأسكِ حجر كنعاني قديم.

-لا مشكلة لدي، منذ كنت صغيرة كنت أعرف أني عنيدة.

رسمنا شكل أعلامنا على الطاولة الخشبية بأطراف أصابعنا، شممت رائحة امتزاج جميلة، حاسة الشم عادت بقوة لدي منذ عرفته، كأنني كنت أُعاني من مرض وجاء لدائي الدواء.

بعدما تحول الحديث تدريجيا لسياسي وهو الشيء الذي لا أفقهه، أو لا أريد أن أفهمه حتى، ولا أثق فيه ولا أنتمي لأي حزب ولا أيّ شيء، "ولا أصدق دفاتر الإنشاء التي تظهر في خطابات القادة كأنهم طلاب المرحلة الابتدائية ويتنظرون أن تصحح دفاترهم بعلامة صحيح أنت وطني شاطر." قاطعته:

- أنا مثلك، أشتاقُ لفلسطين كما تشتاق للعراق، وأتنفس هواءً هناك لا يشبه غيره، القدس قادرة أن تمتلكك حتى لو لم تكن منها ولم تولد فيها.

"لكني لا أشتاق هناك للحزن، هناك حتى الحجر يبدو ثقيلًا وكبيرًا من الوجع والممرات الضيقة تريك باكتظاظها أن هناك مساحات من القدس مفقودة " ولا نستطيع أن نصل لها.

-"أنا لا أحب الحرب لا أحب الظلم لا أحب أيّ من هذا هناك حق ضائع وبيوت ما زالت تنتظر مفاتيحها. أنا أعرف أن حديثنا ليس بتطرف ولا بتعصب، لكن الحرب موجودة في حمضنا النووي، أنا أحمل جينا متنحيا. لا لا بل رئيسيا للحرب .

لكني لا أسأل عن سياسة بلدك ولا يهمني أن أسمع تفاصيل السياسيين وتأكد ليس خوفا من أن نمضي الليلة في السجن.

-قلتها وانا أعدل من ياقة قميصي وأنا أنظر يمينا ويسارا -

"ضحكتُ وضحك هو فأحسست بهدوء أكثر يجتاح حديثي"، ولكن لأني لا أؤمن بهم مهما كانوا، ومهما كان هذا القائد والسياسي من تلك الفئة أو تلك فهو بشر ونسبة خطئهِ موجودة ولكن في الحرب الخطأ يعني الهلاك والموت، أن تكون قائدًا يعني أن تعتكف الحياة وتتصوف، أن لا تتزوج، أن لا تحظى بأولاد في زمن الحرب، "لا يمكن لأن يكون للوطن ضرة ولا يمكن أن يكون للشعب إخوة من غير أم"!

-"إيلياء"!

-نعم.

-لا شيء، أحببت أن أقول اسمك، هيا أكملي.

- يبدو أنني انجرفت وتحدثت كثيرًا، أعرف ذلك لقد كنت أمهر من لاعب الخفة من كثرة تحريكي ليديّ وانفعالاتي.

-بلهاء!، أما بالنسبة لكونك تشبهين لاعب الخفة فمعك حق، فأنا مسحور بك.

نفس المشهد ذاته مر أمامي لاحمرار وجه طفلة اختبئت خلف الستارة فاحمرَّ وجهها وأيضًا ظهر الزغب على مقدمة رأسها فحاولت تغيير الموضوع فاستطردت أو كنت أريد أن أتحدث أكثر فالحديث معه وطن فيه حق الرأي والعيش الرغيد مباح:

-أتعرف أن الحرب فعل جماعي من غير المنطقي أبدًا أن شخصا يرتدي بدلة منمقة ويأكل بالشوكة والسكين في قصره هو سبب كلّ هذا أبدًا وحده، أعتقد أننا نحن الخيوط التي تحرك دمية الحرب إن تشابكنا أو حتى قطعنا الخيوط ستهوي الدمية ونتحرر، الحرب لم تكن وليدتنا نحن فقط وعاصرها جيلنا بهذا الوجع كلّه، كانت منذ زمن وكانت مرحلة لابد منها.

الحرب مرحلة مظلمة لأعظم المجتمعات وأهمها حاليا كاليابان التي نصفها "بكوكب آخر." رغم بشاعة ما صُنع بهم وتعرضهم للقنابل النووية التي قتلت أكثر من **120** ألف في هيروشيما وحدها ووصلت درجة حرارة المدينة لأكثر من **4000** درجة فأصبح الناس يمشون في الشارع ويرون جلدهم تذوب، فيركضون إلى النهر ليخففوا عن أنفسهم فلا يستطيعون الحراك والسباحة فيموتوا ويترسبوا في القاع، لقد تحول النهر لمقبرة جماعية، كلّ هذا محزن لهم ولكنهم أيضًا كانوا قبل هذا بشعين، استخدموا أصعب أنواع الأسحلة وهي البيولوجية ورموها في بحيرات عدوتهم الصين، حينها كان عدد الوفيات بالتسمم لأشخاص أكبر بكثير من عدد الذين ماتوا بالقنبلة النووية.

لكن في النهاية اختاروا أن يرموا بدمية الحرب وأن يستبدلوها بالسلام، الحرب لا تولد إلا حربا، لن تنجب يومًا حياة. أتسمعني أين سرح ذهنك علي؟ هل خفت؟

-أنا فقط أراقب كيف تتحدثين. أبدًا ولست خائفا، كم قلتِ أن يدخل رجلا شرطة الآن وينهيا هذا اليوم في الزنزانة وأنتِ بشكلك هذا سيعتبرون أنني بالتأكيد من أغسل دماغك وذقني أكبر دليل على هذا!

البارحة فقط أخبرتني جارتي العجوز أن أتخلص منها رغم أنها تثق بي وتعتبرني ابنا لها، بعدما تذوقتُ أكلها وأعربتُ لها عن مدى روعته وجماله، رغم أنه لم يكن لذيذًا ولكنها اعتبرت أنها مسؤولة عن إطعامي في العطلة منذ يومها، وبالتالي ستسمع مني كلمات مدح وتبتسم.

لكن جاراتها يعلقن لها كثيرًا عني ويخبرنها أنني قد لا أكون جيدًا وربما أكون إرهابيا متطرفًا متخفيًا بسبب ذقني للأسف!.

-أجدها جميلة ولطيفة.

-ما هي، فعلا ذقني، سأتركها إذن!

ابتسمتُ ابتسامة الأنف المرفوع خاصتي له، واستعددت لأنهض:

-قصدت جارتك، ابعث لي بسلام لها، ولربما ستدعوني لتذوق طعامها بعدما تخبرها عني، وعن -كما تقول- رأسي المتحجر كأنه حجر كنعاني مرمي في أرض مهجورة. أليس كذلك؟

- صحيح أيتها العنيدة، وستكون سعيدة بإخباري عنكِ، أو لربما لا لا أعرف، أانت ذاهبة؟.

- نعم، ستكون سعيدة بي، أما بالنسبة لشكواك علي؛ أعتقد أنها ستقدم نصائح مهمة لك.

- حسنا حسنا كفي عن مناوراتك، أتركك تربحين دومًا برضاي، والآن سنمضي سويا إلى محطة القطار.

- لقد نسيت معطفك، أستطيعُ أن أرى أنك تتركني أربح برضاك فعلا.

يومها كان أجملُ مطرٍ مرَّ عليّ في حياتي وأول اغتسال لنا بزفاف من مطر، أعيد الابتلال مرارا ولن أكترث لا بشعري ولا ولا ملابسي ولا حتى كتبي وأنا معه.

جلسنا في القطار قبالة بعضنا أنا مع اتجاه الحركة وهو مع عسكها هو أكبر مثال على أننا حتى في الأضداد نتلاقى، فتحت حقيبتي وقلت:

-نسيت ...

-ماذا؟

-أحضرتُ لك كتابا. لكن ستعيده لي، أنا بخيلة في الكتب والحب، الأمر خارج عن السيطرة ويتبع لمتلازمة الوسواس القهري للأشياء والتنظيم عندي.

هز برأسه وتنفس:

– أنتِ مشكلة.

كنتُ أريد لو استطعتُ أن أردَّ عليه بالصوت الذي يصرخ داخلي حينها، "وأنت يا عليّ حلُّها"، لكني فضلت الاختباء خلف الستارة وفضلت ألا أفتتح شريط

مشاعري كما عبر لي رغم أنني كنت كما قال بلهاء أحاول بين الحين والحين استعراض ما أُخبئ من طباعي "بطريقة مصطنعة أكبح فيها انجرافي التام له".
أيقن بأننا كثيرون هكذا , نحاول أن نستعرض ونتحدث عن أنفسنا كثيرًا وبطريقة غير مباشرة مصطنعة ليعرف من نريده ماذا نحب وماذا نكره وما هي طباعنا، قدر السكر في مشروبنا وأوقات نومنا، ولا ندري أن هذه الأُمور يجب أن تكون عفوية، وأن تتعلم فقط أن الشخص المقابل لك هو الذي عليه أن يبحث ويستكشف ويتعلم ليمارسها "معك وليس من خلالك ".
هو كان يفهمني ويأخذني كما يقول على "قدّ عقلي" ومحاولاتي البلهاء، وأنا أتقدم باتجاهه خطوة وأتراجع .

كنا أنا وهو نتشابه بالفقد وتعلمت بسبب عليّ أن الفقد ليس فقط بموت الشخص وإنما أيضًا فقد الأحياء أصعب بكثير , حالة فقد مرة المذاق باستمرار ، كغياب أهله ووطنه بوثيقة سفر باتجاه واحد.
ولكني أيضًا كنتُ أخافُ أن يكون تعلقي فيه تعلق فقد واهتمام وحالة خاصة بسبب شخصيته الملفتة أو أن الأمر فعل تحدي بيننا، أنا أعرف أني كنتُ أحتاجُ لهذه الجرعات من وجودِ أحدهم ومن اهتمامه، بعد الكَمِّ الذي خسرته من أشخاص في حياتي، ولكني "كنتُ أخاف والخوف في الحب الحقيقي بداية صحيحة"، أن تخاف ممارسة الوهم والصورة التي في رأسك عن شخص قد يكون

على عكسها في الواقع، كنتُ أحتاج فقط أن أتمهل وأن أُصارح نفسي، وأن أنظر إليه بزاوية متزنة.

ودعنا بعضنا عند المحطة ولوحنا لبعض، لم أسلم عليه قط قبلا، من دون سبب هكذا كنا نلوح لبعضنا عندما نلتقي ونفترق، ولم أدرك هذا الأمر إلا الآن!

الفصل الحادي عشر

لعبة اللغة

قد أكون أنا المتبرعة لك بكيس دم في مشفى:

"رغم أن ديني ولوني ولغتي يختلفون عنك،
والذي يتشابه بيني وبينك فقط وسيمتزج
-غير فصيلة الدم-
الإنسانية إذا تبادلناها أهي لا تملك فصائل !! "

دوسيلدورف Düsseldorf - ألمانيا

أعترفُ أنني أعاني من عيب الاختباء والاختبار المتكرر للأشخاص والأشياء، الذي قد يكون الطريقة التي اكتشف فيها كيفية الأُمور وحقيقتها، ولكني أعرف أنها أيضا ربما ستستنفز غيري وتخترق حدودهم وتخدعهم حتى من دون قصد وحتى لو كان في المحصلة دومًا لا يوجد أذىً لهم أو ليس مقصدي !

كنا قد بدأنا مختبر مادة جديدة أحبها جدًا وهي الفيسيولوجي خلال الفصل، كان موعد المختبر من الساعة الثالثة للسادسة، انضممتُ لمجموعة جديدة مكونة من عشرة أشخاص معي، وأغلبهم يعرفون بعضهم وكان من ضمنهم طالب لا يكلمني ولا يتعامل معي بتاتا.

لمحت في يوم من الأيام نجمة داوود في وشم على ساعده، وقررتُ أن أستخدم لعبة اللغة العبرية معه، في مرة رأيته ينتظر عند باب المختبر، فتحت هاتفي كأنني أحادث أحد، وتحدثتُ العبرية ببعضِ جُمَلٍ وأغلقتُ هاتفي ودخلت للمختبر كأني لم ألحظه.

خلال الدرس وزع لي ابتسامات أكثر من مرة، لم أعرف قبلا أن اللغات فعلا قادرة على أن تملأ -بهذا القدر والسرعة- الفجوات التي تكون بين البشر، رد فعله كان إثباتًا لهذا , ونفضا للغبار عن لغتي العبرية التي تعلمتها في القدس بحكم الحياة فيها .

حاولتُ ألا أدع مجالًا للحديث خارج نطاق الفريق، كنتُ أود أن أراقب بكثب هذه التجربة وهذا التحول المباشر للتعامل بلطف معي، خصوصا أني في وسائل الإعلام والتاريخ وأرض الواقع والتجربة الكاملة لي، "أنا خصمه المتمرد الذي يجب أن يجلس في كرسيه مهذبًا وهو يأخذ الطاولة من أمامي"، وهو في نظري"حرب قتلت أرواح وروائح ".

مع أنني لم أكن أعرف توجهه، وأعرف أن كثير منهم يعرفون الحقيقة كاملة، وهم مع الحق، لكن تصرفاته، ترجع الزمن إلى الوراء و تذكرني - بصورة تشكلت أمامي - عندما كنت أركب المواصلات العامة في القدس حيث كانت نفس النظرات والتعامل، فاستحضرتني كلّ هذه المشاهد كلّما رأيت تصرفاته معي، وإن كان ليس لدي أيّ أثر يُذكر في مسألة وطني، فلربما أستطيعُ الآن أن أترك أثرًا حتى لو من خلال جدران هذا المختبر وتجربتي الفردية.

في الموعد الثاني للمختبر، سألني هل نستطيع أن نقوم بعمل التجربة معًا؟ وبرر بأن ليس لديه شريك، وافقت أو بالأحرى كنت متوقعة لأمرٍ كهذا وكان أبسطها، فقد وضعتُ توقعًا لطلبه الحديث معي وحدنا وكان أكثر أمر قلقت منه.

بدأت التجربة، وخلال مراحلها التي تتعلق بفحص أجزاء من العين وردود الفعل لها، وصلنا لاختبار شبكية العين ورؤية الأوعية الدموية بشكل واضح وخلال ذلك وبضوء خافت حولنا، سألني:

- أنتِ يهودية؟

-لا، ولكني أؤمن بها كديانة.

- كيف تتحدثين العبرية؟ صمت وقال بتردد: إذًا أنتِ عربية فلسطينية صحيح؟
- وأنتَ يهودي، أعرف، لكن الأمر لم يشكل لدي فارقًا، الأمر شكل لديك أنت فارقًا واضحًا بالتعامل معي حتى صباح الخير أصبحتُ أستحقها بسبب فكرة أنني أشبه من لهم نفس ديانتك. وتأكد أنني ليس لدي مشكلة مع دينك ولا لونك ولا أيّ شيء، أنا مشكلتي مع عنصرية الحرب، لذلك لم يتغير تعاملي يوما، وتعاملك كان يمثل الترجمة الحرفية على نطاق بسيط كيف "أن الحرب في النفوس، وأن فكرة لشخص في اجتماع يومًا ما قد أودت بشعب يظلم يوميًا وآخر يمارس الظلم باقتناع على أنه حق، كنا دومًا نعيش في فلسطين ثلاثة ديانات سويا، ولم يطرد أحد بسبب دينه"
- أنا لم أقصد أن أُهاجمكِ، ولكن لنا حق بعد كلّ الذي تعرضنا له أن نحصل على وطن وأنتم لا تتعايشون وتمارسون الارهاب!
"حديثي كان مستمرا كأنني خلال الأيام الماضية كنت أُخزِّنه وقد ضغط أحدهم على زر التشغيل فأفرغت كلّ ما أريد" , أعتقد أن الأوعية الدموية في قاعدة الشبكية لديه اتسعت وأصبحت أكثر وضوحًا، وراقبتُ اتساع البؤبؤ الناجم عن الشعور بالصدمة، "وهذا أعطاني فرصة للتعلم والبوح في آن واحد"
- حسنًا، أنا هدأت الآن ولم أقصد مهاجمتك أيضًا، ولكن كان يجب أن أكون أمامك كمرآة تعكس لك كيف تعاملت معي وكيف اختلف تعاملك ولربما تواجه نفسك فأنا نفس الشخص لم أتغير، واعتبرنا هنا لهدف واعتبرنا في باص واحد يأخذنا لمكان آمن في هذه الحياة قد أكون جالسة بجانبك أو حتى أنا من

يقود أو أنت في هذا الباص، انحراف المسار والشك هو الشي الوحيد الذي قد يعطل هذه الرحلة، الباص لنا جميعا والباص ليس للأقوى، وردًا أيضًا على كلامك: إنه لا يحق لأحد أيًّا كان أن يُهاجِم ويقطع طريقنا ليأخذ الباص منا ويحبسنا في الكراسي الخلفية "بحجة" أنه كان لوالده منذ زمن، ويمنعنا من التنفس، ولو عدنا للتاريخ فعلينا أن نختار تاريخا موحدا يظهر الحقيقة، ولا ينحاز بفعل القوة، لستم الوحيدين الذين تعرضوا لظلم، هناك الكثير ولكنهم لم يختاروا أن يُفعل ما فُعل بهم وبشكل أفظع ومستمر لعقود ، أمي ألمانية وعشت للصف الأول هنا وعندما عشت في القدس رأيت الوضع بعين الحقيقة وليس الوطنية فقط!

خرجت من المختبر بعدما حصلت على توقيع إتمام التجارب، وقدمنا أنا وهو النتائج بصمت، "ممارسة السلام حتى في هذا الأمر غير منصفة ولن تنجح"، فتحول لشخص يعطيني تعابير قاسية وفقط رغم أن هدفي لم يكن هذا .

كانت القدس ورائحتها تمتلئ في صدري فأتنفس بسرعة وبرجفة، جلستُ في القطار، وثبتتْ عيناي على نقطة واحدة في منتصف النافذة وبدأتْ صور في بالي تمر خلالها، في القدس ستشعر بأن الوجوه جدًا محتقنة، يراقبونك وكأنك تحمل في حقيبتك وتحت ملابسك وبين ثنايا جسدك شيئًا سيئًا، رغم أنهم يحملون الخوف والرعب بشكل علني ضدنا بالطرقات وفي كلّ مكان حتى الأماكن المدنية ويشهرون تعابير الوجه السيئة في مواصلات النقل وفي كلّ شيء، فاحتجتُ لعلي، أو للحديث معه، كان في جعبتي الكثير كتبت له:

- أحتاج حديث قهوة بشكل جدي

رد: - يبدو أنني ساحتاج لدعم دينيز.

"أبتسم دومًا بسببه في اصعب المواقف لطريقته "

في اليوم التالي التقيتُ علي:

-تفضلي قولي لي

- البارحة تعرضت لموقف مع طالب يهودي أو هو الذي تعرض، لقد تحدثت أمامه بالعبرية لأُثير اهتمامه ولأكتشف نواياه وأختبر طريقة تعامله معي.

- حسنًا، لا أعتقد أن لعبة اللغة جميلة ولا التلاعب بهذه الأُمور دومًا مفيد، ولكن أود أن أسمع خلاصة التجربة، هل عرف أنك عربية فسلطينية؟

- نعم، زارني وجع القدس فلم أُفوت فرصة أن أتحدث وأقول ما لدي.

-الكل يعرف وضع فلسطين وكل ما تمرون به , ولكن أيضًا أعرف أنك واجهتي الأمر بطريقة مفاجئة بانتقالك من عالم لآخر.

- لم تكن القدس يومًا كلّما قرات عن التاريخ تحمل على أرضها العنصرية، وكان الجميع يعيشون سويًا، لو ذهبت أيضًا لبيت لحم لوجدت المسلمين والمسيحيين في الكنائس سويًا، لكني شعرتُ بأني حبيسة فقاعة بتعامله، وبعدم الوضوح بيننا وأنا لا أحتمل أن أعايش الأمر في غرف صفي أيضًا، لم أكن لأصمت , هذا أضعف الإيمان !

- لكنهم هكذا وحتى في التفاصيل الصغيرة يؤمنون بأن دمهم حتى لا يجب أن يختلط وأن لا يتزوجوا من غير ملتهم، وبطبيعة الحال هذا سبب رئيسي لتصرفاتهم. لو فكرنا بعيدنا عن الحرب وما يجري، فهمتيني؟

- هذا الأمر لم أفهمه، غريب أن الدم لا يختلط، مهما حاولوا سيحتاج أحدهم في مستشفى لنقل دم ويحصل على دم من متبرع قد يكون أخوه قد استشهد وبيته دُمر وأمه تبكي إلى الآن، لا تُكتب على أكياس الدم الجنسيات ولا ألوان البشرة ولا الطوائف تكتب فقط فصيلة الدم، تختلف الجينات لربما لكنها لا تشبه أيّ شخص آخر.

- ألا ترين أنكِ تجهدين نفسك؟

- رد فعلي مبالغ فيه أعرف.

- أبدًا لو كنت مكانك لربما تصرفت بطريقة أكبر ولكن يبدو بأن الانتفاخ تحت عينيك سببه عدم نومك والتفكير المتواصل، "إيلياء" أنا من الذين سيختاروا دوما أن يسمعوكِ للصباح، ولكن لاحظت شيئًا، بأنك تفكرين أربعا وعشرين ساعة في اليوم وتحللين كلّ شيء، وحتى في نومك أيضًا أجزم أن أحلامك تتعلق بالتفكير، هذا الأمر مرهق وعندما تكبرين وتصلين إلى عمري مثلا -لأنني هرمت بنظرك- هناك أمور أخرى ستحتاجك، وإن أضفتِ هذا التفكير المفرط لها ستكونين متعبة والأمر سيستهلكك فعلا!

- معك حق، أنا أفكر وأحلل وأبحث بين تفاصيل الأشياء ولا أصدق إلا إذا اكتملت كلّها في رأسي، أعرف أنه عيبٌ فيّ وأمرٌ متعب ولكنه طبع.

_ الأمر ليس بعيب أو بميزة، الأمر يتعلق أنك دائمًا تشعرين بالذنب بنهاية هذا الكم الكبير من التفكير، وهذا أيضًا مرهق ومستنفذ لك، عليك أحيانا فقط

أن تأخذي نفسا عميقًا وتتأملي الحياة بابتسامة من دون أن تفكري وتركزي على أشياء محددة، مثلا عليّ أنا، لمَ لا تستكشفيني وتستثمرين قدراتك الخارقة في؟!
"كالعادة يستطيع أن يجعلني أبتسم رجل المباغتة هذا ". فكرت أن تراكم السنوات الأولى في حياتنا لا يُمحى من ذاكرتنا، وعندما نكبر يتحول كلّ شيء إلى طباع وتصرفات وردود أفعال، وأعتقد أنني بعد انتهاء العشرينية الأولى لي، بدأتُ أكتشف ردودَ أفعالي وما علق بشخصيتي من طفولتي وتجربتي، وقد حان الوقت كما قال لي عليّ أن أتنفس من دون أن أُفكر أحيانا.
- "إيلياء" ما زلت معي؟؟ هالو!!
- نعم، لدي سؤال، هل مررت بمواقف عنصرية غير مشكلة الذقن؟
"سألته بدافع إيجاد حديث سريع , لكن إجابته نقلتني الى درجة أكبر من الوعي , وباغتني كعادته بعالمه وتجاربه " :
- بالتاكيد أنا "نتاج الطائفية".
أعرف ماذا تعني هذه الكلمة، لكن هذا المرة الأولى التي أُواجهها، لم أختبر في حياتي هذه التجربة والمشكلة والرائحة النتنة فعلا التي شممتها فيما بعد في حياتي عندما أرى أيّ علامة أو تصرف يتبع لفكرة طائفتي وطائفتك.
في هذا العالم الكثير والكثير من الأشياء التي تفرقنا، الحدود اللغة البحار الموت والحياة وحتى الذوق في الطعام والتقاليد والعادات والدين بثلاثيته السماوية، فنصل بعد هذا كلّه إلى أن نقسم أنفسنا كمجموعات إلى أقل وأقل وأقل وبطابع حزبي وسياسي أيضًا لتكتمل الصورة البشعة والرائحة.

كنتُ قد قرأتُ في الكثيرِ من الكتب عن الحروب الأهلية والطائفية وعن الكثير من الشعوب التي تم اضطهادها وتطهيرها، ورغم تأثري الكبير بذلك واندهاشي، إلا أن التأثر كان يبدو ورقيًا فقط أما أنا اليوم فأقف أمام تأثري الكامل والواقعي، وبقيت صامتة أستمع بعدما سألته هل لي أن أسمع كثيرًا وأن تخبرني التفاصيل.

- أنا من مدينة البصرة في العراق وهي مدينة بأغلبيتها مسلمة فيها طائفتين أساسيتين الشيعة والسنة، وأنا كما تعرفين أو لا تعرفين كونك لم تسأليني من قبل "شيعي" أو أنحدر من عائلة شيعية لأنني لو ولدت في سنية سأكون سنيًا بالتبعية، وأيضا تحوي البصرة ديانات أخرى كالمسيحين من أرمنا وآشوريين وهم من أقدم الجماعات والطوائف التي قطنت المنطقة، ومع أن أعدادهم شهدت زيادةً ملحوظة عَقِبَ المذابح التي طالتهم أواخر العهد العثماني وأرغمت قسمًا كبيرًا منهم على النزوح إلى العراق لكنهم بقوا كأقلية صغيرة وكان هناك حتى يهود ولكن أغلبهم هاجروا إلى إسرائيل، وحتى هناك عدد من الصابئة ليس قليل.

- الصابئة، من هم؟

- هم مجموعة تؤمن فقط بالأنبياء: آدم، شيت بن آدم، سام بن نوح، يحي وزكريا، أعتقد أنه فقط هؤلاء عليهم السلام ولهم تعاليمهم الخاصة وكتاب يدعى بالعربية الكنز العظيم ومع أن تعاليمهم بالأساس تشبه أركان الإسلام من صوم وصلاة وزكاة , والارتداد عن دينهم يساوي القتل كباقي الأديان، وبالرغم من هذا التنوع ولكن الطائفية هناك يمر شبحها يوميًا في كافة مناحي الحياة، ورغم أننا بين كلّ هذا كنا بلا شك نحظى بعلاقات قوية مع غيرنا من الطوائف ولكنها

كانت تبقى استثناء وعرضة للانتقاد. أنا فعلا أستغرب الذي ولد بانتساب ما ويلوم غيره على انتسابه!!

وأنا لو تحدثت هنا دون أن يسمعني أبي وأمي وأقاربي:

" لا أؤمن بسني ولا شيعي ولا غيره، أؤمن بدين أصله كتاب وأتبعه، واضح فيه الخطأ والصواب ,لا يحتاج الكثير للحوار والتفكير".

وما تبقى مناجاة بيني وبين ربي، أخاطبه فيها في صلاتي، ولا أقصد أن أُخبرك أني اصلي وأني أيضًا أذهب لصلاة الجمعة وكل مرة إلى مسجد مختلف حتى لا أُحسب على أحدهم، ولكن لأخبرك وأُعلمك بأن الشيء بيني وبين نفسي وبقناعتي أنا، وأنني فعلا لا يكتمل يومي ولا قوتي بدونها، بعد كم الحرب الذي عايشته والغربة، ألجأُ له دومًا وأعرف أنه سندي، بمناجاتي له يوم كنت في مخيم لا مستقبل لي يلوح فيه أمامي، والموت ورائي.

وعلى سبيل الذكر حتى خُطَب الجوامع المختلفة المذاهب تختلف رغم أن مصدرهم واحد، لكن سترين أن لهم طُرقًا تختلف عن بعضها، أو ربما " الإمام من هذا المذهب ورثَ طريقتَه عن قبلِهِ فقلَّده من دون أن يدرك حتى لا يدخل في طائلة الخطأ والتشابه مع مذهب آخر، أو أن تحليلي مبالغ ومتعمق وبدأت أُشابهك بهذا" .

- إذًا أنت من تحتاج دينيز الآن.

ابتسم بعدما فكَّ قيدَ يديه، وخفَّتْ آثارُ العروقِ فيها، والعِرقُ البارز في جبهته، وفرك ذقنه وبعدها جبهته وترك يديه عليها يطوق بهما عينيه من أعلى وتنهد:

- دعيني أتذكر قرأت مرة شيئا: قرأت مرة للدكتور مصطفى السباعي في كتابه الذي يعرض نماذجًا للتسامح الديني أعتقد أنه كان " روائع الحضارة" وصفًا جميلا :

فقد وصف البصرة بشيء جميل على لسان أحدهم، ربما كبرت كثيرًا لقد نسيت الاسم، المهم أن هذا الشخص قد شهِد على عشرة في البصرة يجتمعون في مجلس يضرب فيه المثل في الدنيا علمًا ونباهةً، وكان منهم سني وشيعي ويهودي ونصراني ومجوسي وصابئي فكانوا يجتمعون ويتشاركون الأشعار ويتناقلون الأخبار. الذي أعنيه أن في هذه الفترة من الزمن لم يتحول مجلسهم لحلبة صراع ولم يتحول لونه إلى دماء، نحن أيضًا معضلة كبيرة يا "إيلياء" الفكرة بنا نحن لدينا كتاب واحد ونفترق! ورب واحد ونفترق! وكوكب ولغة واحدة وأيضًا نفترق وشكل وجوه واحد ونفترق!، نحن نملك موهبة صنع الفتن والبحث عن أيّ تفصيل يفرقنا ونجد في هذا تميزنا والطينة التي تسد فراغات ضعفنا ونقصنا والحائط الذي نعلق عليه مبررات أعمالنا ونرتكز عليه حتى وإن إخطأنا، فالطائفة والحزب ستحمينا!

- دعني أقول لك أمرًا، هذه أول مرة أواجه الطائفية، وشخص نختلف مع بعضنا في طائفة سني وشيعي.

- أعرف أني كنت أتعمد أن أؤجل الحديث والسؤال عن هذا لأمرين لأني لا أجدهما لأني أتَّبع دينًا واحدًا، أو لربما السبب الثاني الأهم حتى لا نكون في هذا الموقف، وتأكدي أني أُقدِّر أيّ شعور وتصرف لك وأيّ شيء من شأنه أن يؤثر على علاقتنا حتى صداقتنا كما تحبين دومًا أن تصفيها.

-لا أدري ما هو الإحساس الذي شعرته مني ورد فعلي، ولكن أجزم أني عميقة وعنيدة طبعًا ولكن أُفقي ومداي أكبر، أو لأكون صادقة لا أدري، ولكن طريقة حديثك ووضوحك بتعاملك مع فكرة الطائفية ترغمني أن أكون هكذا وتأكد أني معك بفكرة أننا السبب. لكن انظر، لربما لو تحدث معي بتطرف أنا كنت لن أتفهم وكنت تطرفت.

أو لا أعرف ولكن أعرف أنني أختبر هذا لأول مرة وأعرف أني حظيت اليوم بفضلك بمعلومات ووصلت إلى مراحل من التفكير لم أصلها، وستستهلكني وحدي أكثر منها معك، ولا تنس أنا طفلة من مسيحية ومن مسلم، واخترت ديني اقتناعًا وليس بشكل تبعي، اتخذتُه شاملًا لكل الأديان ومكملًا لها ومخلدًا.

- لاشك لدي أن الحديث معك يمر بنا بوقت قصير إلى مراحل كثيرة، وأحيانا أحتاج أن اؤكد لنفسي أنك في بداية العشرينات من عمرك فقط.

- سأعتبره إطراء منك.

- اعتبريه كما تشائين.

- أود أن أقول لك أن خلال عطلة الأسبوع كاملة سأبقى أفكر بحديثنا هذا ولكن سأحاول ألا أُحلل أو أتعب نفسي، وألا أبحث وأقرأ كثيرًا رغم أنني سأفعل، ولكني متأكدة أن جملة واحدة من التي قلتها لي اليوم ستبقى ترن في أذنيّ.

- ما هي ؟

- "أنك تصلي في كلّ مرة في مسجد مختلف"

فبيوت الله ليست حكرًا لأحد وأنفسنا أعظمها خصوصية.

أتدري ؟! معنى اسمي " بيت الله" وأسعد كلّما تذكرت هذا، وأنت يبدو أن في "قلبك مسجدًا "

يتحرك معك في كلّ خطوة وينبض فيك.

لازلت أذكر ابتسامته وصمته !

الفصل الثاني عشر

هجرة للحياة

هُناك مَن يَتعكزون على أحلامهم

وَسط كلّ هذا الدَمار،

دَعوهم يمرون بِسلام

لا تَرموا أمامهم حِجارةً مِن الرُكام

دوسيلدورف، DÜSSELDORF - ألمانيا

تستمرُ الحياة وستستمر، رغمَ كلّ متلازمة وجعٍ تصيبنا وتُصيب غيرنا وبلادنا، ورغم الوقت الذي يمضي فينا كسيفٍ حادٍ، والحروب والشتات والظلم، ورغم فرق التوقيت بين الشعور والفعل الذي أضحى فينا أو حتى عدم الفعل، مازالت تستمر، ونحن نجاريها كأننا راكبو قطار نجلس فيه ونمسك بالصحيفة اليومية ذات العناوين المتكررة ونمارس دور الصامتين والفاهمين لكل شيء ولكل النظريات التي تُحاك لنا ولكل النتائج وما يجري تحت الطاولات.

ينزل كلّ منا إلى محطته، ويهطل المطر، فتذوب حروف الحرب والظلم بينما نختبئ تحتها، ولكننا بعد كلّ هذا نعود في اليوم التالي، لنفس الوجع نشتري الصحيفة وننتظر القطار.

انقضت أغلب السنوات الدراسية لي وانقضى معها فصول من فهمي لنفسي واختبارها ومن نقاشاتي مع علي، ما زالت رائحةُ روحه لم تتغير، وابتسامته لم تختفي، وذقنه لم يتنازل عنها رغم كمِّ الأحداث الأخيرة، وتخرجه ومحاولته للحصول على التخصص الذي يصبو إليه، كان واثقًا من نفسه ويعرف أنه من سيفرض نفسه لا حلق ذقنه.

كان يعبر دومًا لأصدقائنا الألمان، أن الاندماج هنا لا يعني أن نقلد ما تفعلوه ولا أن نصبح نسخ عنكم، الاندماج أن أتقبل وأتفهم وأتعامل معكم وأن أمارس

أفكاري ومعتقداتي من دون أن تتعارض مع أحدٍ بشكلٍ خاص ومع دستور الدولة التي نتبع وهو المرجع والأساسي لنا ما دمنا هنا.
النقاش الأخير لنا كان كئيبًا وحزينًا، الأحداث تتصاعد في مصر وسوريا واليمن، كنا نرى أنفسنا في البداية نعاني من أننا جيل الحرب في بلادنا، ولكننا الآن أصبحنا المخضرمين ولدينا خبرة الحرب ومضاعفتها باتت فينا متلازمة ورثناها !

ولحق موكب الوجع ملايين من الناس غيرنا , والأرواح ودعت الحياة قصفًا واعتقالًا وغرقًا وتجمدًا في شاحنات.
مع مرور الوقت أصبح الأمر عبارة عن طريقٍ باتجاهٍ واحدٍ، الناسُ تهرب من الموت إلى الحياة، ومنهم من هرب من الموت إلى الموت، فموت ووجع ومنفى، وألمانيا كانت وجهة للحياة للكثيرين.
هُنالك مَشهد في مُسلسل" التَـغريبة الفلسطينية" الذي كنت قد تابعته منذ زمن كأي فلسطيني، لِلفلسطينين وَهم يَـنزحون وَيحملون أمتِعتهم بِلا وجهة. الزَمن تَغير طبعا، والمَكان آخر، وطَبعاً الإحداثيات مختلفة تماماً، لَكن اللاجئين السُوريين قد رسموا هذه الصورة مُجدداً، على الأَقل في ذهني أنا، فكنت أَراهم يَـجرون أَمتعتهم وحِملا أكبر بِكثير من هُمومهم، في مَحطات القِطارات، يَـضيعون بَـين اللافِتات الكَثيرة، وأرقام الشاشات.

عائلة بأكملها تَـدور أمامي في دَوائر مُغلقة تَـبحث عن طَـريقها .

صعَبة هي الفِـكرة جدًا، لِأبٍ كان سَيُعلم ابنه بِبساطة طُرق حَارتهِ وَوجهات وَطنه !، وها هوَ اليوم قَبلهم يُحاول نَفسه أن يَتعلم أو يَـستوعب أَين هو.

في دائرة من الحديث الذي كان يجمعنا أنا وعلي مع مجموعة من الفتيات والشباب السوريين والعرب ! ، كنت أرى دومًا ذلك الوجع والفقد الذي يملأ وجوههم وشوقهم الجارف لدمشق رغم أنه قد هُيئ لهم هنا كلّ الأساسيات ليمارسوا حياة صحيحة وطبيعية والتحقوا بأحلامهم وجامعاتهم، إلا أنني كنت أرى أنهم يودون لو "يذهبوا في كلّ لحظة لدمشق ويفركوا زهر ياساميناها بين يديهم ويشتموه"، شممت رائحة جديدة بسببهم، رائحة الياسمين المعتق في أرواحهم كلّما التقيتهم.

ومن أجمل الجمل التي سمعتها كانت من أحمد السوري الثلاثيني صاحب ماجستير اللغة العربية الذي قرر بعدما فقد كلّ شيء أن يبدأ من الصفر مجددا، وكنت من أكثر المعجبين بثقافته ولغته وما يقدمه لنا من لغة عربية مفعمة بالفخر والروايات والسير، قال في ذات مرة:

- وَطـني لا يَـحتاجُ لأن أَعود على هَيئة "بَـقايا حرب "!!،

ولا صورة بشريط أسود على زاويتها اليُـسرى، ولا يَـحتاج لِـضعفي، لا لِـندب حَـظي وانـتظار المُـعجزة أن تَـدق بسماء الوطن فيتناثر الـرَذاذ اللامع عَليها وَتعود كَمـا كَـانت خَضراء جَـميلةٍبِـرائحة القَـهوة والياسمين "

ذكرني بطريقة ما بطارق وريم، وبالرسالة التي وجدتها في كتابها، وبمكتبته التي كلّما زرت القدس ولو حتى لأسبوعين فقط كانت من أهم مقاصدي، وأقضي أغلب الوقت معهما فيها، كان لهما نفس الروح ورائحة الكتب فيها، وأحسست

فجأة أنني كبرت كثيرًا ، وأنه مرَّ زمنٌ طويلٌ على هذه الرسالة والسر الذي لا أعرفه إلا أنا.

كُنا ننظر كثيرًا أنا وعلي لبعضنا ونتذكر أحاديثنا عندما تفتح بينهم نقاشات" أنت مع أو ضد حزب أو نظام " أمامنا، كنت أعرف وجعهم ولكن ما كنت أريد قوله دومًا وقلته فعلا في مرة:

- بعد هذا الوجع برأيكم تحتاجون وجعًا الآن أكبر، وهل بتفرقكم الأُمور ستغدو أفضل، الأمر لا يتعلق بشخص، الأمر يتعلق بشعوب، ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية كانت مدمرة بالكامل، لم تنهض بسبب شخص نهضت بسبب شعب، أنتم لربما ستستطيعون العودة إن شاء الله لوطنكم وتعيدون إعماره وأنا أثق بكم، أنت قادرون هنا أن تضربوا أكبر الامثلة بالعطاء والعمل والانتماء والإنتاج، فكيف ببلدكم؟، ولكن إن أخذتم الفتنة والطائفية معكم ستكون وقتها هي قائدكم الديكتاتوري الذي تعتبرونه سبب كلّ ما سيلحق بكم من دمار أكثر. أعرف أن الحرب في بلدي مختلفة والعدو المفترض واضح للجهتين، لكن رغم هذا تقسمنا إلى أحزاب ولدت أحزاب أصغر فتفرقنا أكثر من التفرق الذي رسم بيننا بحدود غزة أو الجدار الفاصل، التفرق كان في نفوسنا، أصبناها بالخيبة، واستحققنا بجدارة وضع يسوء أكثر وأكثر مع الوقت، وغزة تقتل كلّ يوم بتصغير الحلقة حول رقبتها فتختنق بسبب أحزاب!

أتدرون ماذا يشابه الذي يحدث لنا، وسأدخل الطب كعادتي لكنها قصة لا أذكرها بتفاصيلها جيدا:

في فترة مرت فيها أوروبا، كان هناك شبح يسمى" موت الولادة الأسود " ، بسببه السيدات كانت تموت بشكل مفاجئ بعد الولادة، وأصبحت النسبة تتزايد حتى وصلت لأغلبية، في هذه الأثناء كان الأطباء يبحثون عن السبب، فيقومون بتشريح الجثث بحثًا عن أيّ تفسير، ويكملون دورة الحياة الأخرى حيث يولدون نساء أخريات.!

لكن الأمر لم ينجح بالتوصل لأمر رغم تشريحهم للجثث وبحثهم المستمر. إلى أن قال أحدهم أن عليكم أن تغسلوا أيديكم بعد تشريح الجثث، وقتها لم يهمتوا واتهموه بالغباء، وبعد فترة ثُبتَ ذلك وفُرِضَ التعقيم وغسيل اليدين على الاطباء في أيّ تعامل، وبنتيجة عظيمة، قلَّ عدد الوفيات الكثيرة.

الفكرة من كلامي هذا واختصاري للقصة:

"أننا من دون أن ندري نترك أيدينا ملطخة بالعنصرية والنبش في أسباب نسقطها على غيرنا، وبالتالي ننقل عدوى الحرب والفشل لكل فرصة نستطيع بها أن نحاول أن نعيد أوطاننا، لن تتغير إلا بنا وبعد أن نتطهر ولو بنسبة من كم الفتن والتفرقة".

استمرت لقاءاتنا وازدادت دائرتها في كلّ مرة، رغم أنه هناك فترات طويلة تفصل بينها، وأصبح الحديث يتركز على الرُهاب من المجتمع الإسلامي، وأصبح "علي" يسمع تعليقات مباشرة في الشارع خصوصا بسبب ذقنه. فالمنظمات التي قامت باسم الدين كانت الضربة الأقوى من الحرب التي استهدفتهم وهاجروا بسببها :

" ففي الغربة وصلتهم قذائف الحرب من على بعد من خلال الصورة التي تطبعها يومًيا عنهم وتتصدر صحف العالم بكل اللغات ، كأنهم لعنة الحرب التي رافقت كل من هجر الحرب ، فهي لم تكن تستهدف دينًا بذاته، كان المصاب جلل للجميع ولكل الديانات والطوائف! أن تخاف دين الله , يعني أن الأمر فعلا أصبح طاعون الزمن القاتل"

الأمر لم يكن بنظري يحتمل يومًا النقاش، هم لا يمثلون الدين الاسلامي ولو بحرف، هم يتخذونه غطاءً تمامًا كما اتخذت من قبلهم أمثلة، كـإسرائيل التي اتخذت من اليهودية غطاءً وحذت حذوها هذه الجماعات، هم متشابهون !

" وأود لو أضعهم جميعًا في قالب واحد , وأصهره وأدفنه! "

أما التابعون لهم فكنتُ أعتبرهم في كثير من الأحيان -خصوصًا الصغار منهم- مغيبين وجاهلين والحرب تتحمل المسؤولية والظلم والبيت والأم والأب والدولة، أن يتم غسل دماغ عشريني يعني أن دماغه لم تتعدَ الأربع سنوات وتختصر بفكرة الذكورة والقوة وأن يحصل على السمع والطاعة والمتعة.

ورغم ذلك لم يتخلى عليّ عن ذقنه، وكان يقول دومًا ردا على التعليقات من الألمان وزملائه في المشفى وحتى من العرب هنا:

- " لتستطيع أن تعيش في المجتمع الألماني عليك أن تكون واثقًا مما تفعله , وأن تكون قويا من داخلك مقتنعك بكل تفاصيلك !.

ضعفُك قد يُسبب لك المشاكل أيضًا، وهذا في كلّ مناحي الحياة، حتى في طلب إرسال تأكيد لأمرٍ ما، إن لم تسأل وتطلبه وتبحث لن تحصل على شيء، ولا يوجد

من سيهتم بك. أما بالنسبة للرهاب مني، أعرف أنه انطباع أول وما إن يتعرفوا إليّ سيغيرون من نظرتهم، وهذا الجميل بثباتي لأني لو قمتُ بحلق ذقني فسأُثبتُ لهم أنني كنت أُخفي شيئًا ما وأتبعه، وأنني أودُ أن أعترفَ أني تغيرت وتُبتُ عن فكري السابق.

لذلك على العكس تمامًا يجب أن أبقى كما أنا ويشاهدوني ويتعاملوا معي ليتخلص لو بضع منهم من هذا الرُهاب ومن الصور الإعلامية المغروزة في أذهانهم، وإن كنتم تتحدثون عن أن تجمعاتنا تظهرنا بهذا الشكل كالأتراك مثلًا وتجمعاتهم واعتمادهم لغتهم، فالأمر ليس لهذا السبب، إنه صورة إعلامية بحتة، لأننا لو نظرنا إلى جانب آخر كمثال في دوسيلدورف، سنجد أن هناك أحياءً كاملة "يابانية "، من أكبر التجمعات وأقدمها، وستجد محلاتهم ومطاعمهم يابانية ويعمل فيها يابانيون ويتحدثون اليابانية فقط، لكن لم يُعلَّق عليهم مثلنا، لأن صورتهم في الإعلام "بلاد السلام"، البلدان كما الأشخاص، الصورة التي تظهر بها ستعامل بها ببساطة "!

بيني وبين نفسي أعرف أنني أختلف عنهم، أنا لم أترك وطني مرغمة وأعرف أني من نِصفا وطن وروح كاملة مقدسية والروح أساسي، لكن الأمر ليس بيدي، حتى تركيبتي الجينية تكونت من جزء ألماني وجزء فلسطيني، أنا لم أهاجر وأستطيعُ أن أعود لوطني وقتما أشاء أو أعتقد إلى الآن، لا أعرف ما ستخبئه الحرب لي، وأعرف أني أتعامل مع المجتمع الألماني وفئاته، وأعرف أن فيه أشخاص في غاية الجمال وهم أكثر، وفئة للأسف عنصرية حتى بينها، لكني كنت أعتبر

نفسي جزءًا منهم ولم أستثنِ نفسي يومًا، واعتبرتُ نفسي مهاجرة للحياة معهم، فالمُهاجرون للحياة مثلهم وَحدهم مَن يَعرفون أن بَعد هذا الترحال، لابُد أن تقوم حياة،

وَأَن الحُدود لا تَرتسم في الروح كَما الأرض،

فَكم من أرض سُلبت وفي الأرواح تَعيش مُقدسة،

وَكم من أرض تُحاول أن تُقام وفيها الأرواح خَاوية،

الهجرة ليست بالضرورة من وَطن، قد تكون أيضًا مُحاولة للعودة إلى الوطن وأوطاننا جميعها سيَسبح يومًا ما في سمائها زهرُ الياسمين مع السُحب وَبينهُ ستلتقي مئذنةٌ وَجَرس.

في أرض من الأَديان التي تجمعها شَريعة الصلاة لله الواحد الأَحد، حيث تنعدم فيها الطائفية، ونتشارك سويًا حجارة نُعمر بها دمارًا قد مرَّت به في غيابنا، أعرف، ذلك يبدو خيالا وحلما، ولكن إن فقدنا الأمل ماذا سيتبقى لنا من الوطن؟!

الفصل الثالث عشر

حمى الفقد

ذَات فَقد يَتبعثر فيك الوجود كلّه حُطام وتعود أُمياً وَحديثاً بِنعمة الحياة،
بِذات الفَقد نَفسه يَتمرجح القَلب على حَبل رَفيع جدًا، لو شَددت وَثاقه حول وَتد
الذكرى لَباغتَك يَهوي في عُقر الروح مُرتطماً بلا حراك
"فتحاصرك الذكرى كالبرد وَتَغدو مَريضاً بِحمى الفِقد"

دوسيلدورف DÜSSELDORF - ألمانيا

مريضتي الأولى

انتهت سنوات دراستي، كان صباحًا هادئًا جميلًا من الصباحات التي تنذر بقدوم الأعياد المشابهة للتي كنا نقضيها مع أمي.
وفي ثوان حدث الأمر، فقدتْ جدتي الوعي، حاولتُ التصرف لكني أخفقت، إنها جدتي، أن أراها بهذا الوضع يعني أنني من أحتاج أيضًا لمن يسعفني، حاولتُ تمالك نفسي، تأكدتُ من مجرى التنفس ومن نبضها، وتأكدت من أنبوب الأنسولين أنه فارغ، حيث قامت بأخذها أمامي، لذا كنتُ أعرفُ أن الأمر ليسَ نوبةً سكر!.
اتصلتُ بالإسعاف، وصل ونقلنا إلى المشفى، كان أبي وزوجته يقضون عُطلة شهر عسل زواجهما في باريس وسيزورانا خلال هذا الأسبوع وكان هذا مساندة من الله لي، اتصلته به .

كنت أحتاج لأبي،- كان أبي قد التقى بزوجته "ديما" أثناء رحلات عمله وقرر الزواج بها، وكنت سعيدة لقراره بأن يعيش حياة جديدة-.

التشخيص واضح سكتة دماغية، وما زالت في الغيبوبة، مرت ثلاثة أيام أستطيعُ أن أتخلى عنها في عمري، أنا واجهت نفس هذا الوجع ونفس هذا المشفى لكن كنتُ صغيرة ولم أع تمامًا فكرة ممارسة الوجع، شعرتُ به لكن لم أمارسه، أما

الآن فأنا أمارسه وأبكي وأحس بأن صدري يختنق، وأنني أواجه أمي وجدتي في نفس السرير والغرفة عبر زجاج لا أعرف فيه شيء غير بصمات يدي وانتظاري.
حاول "عليّ" التخفيف عني حيث كان طبيبًا مساعدًا في قسمها، وكان يحاول أن يقنعني أن الأمر مستقر، لم أتأثر بكلامه للمرة الأولى ولم أطمئن ولم أكترث حتى بتعارفه هو وأبي الذي كنت أنتظره ورسمتُ له الكثير من التوقعات والصور، ولا بمحاولات أبي للسؤال " من هو علي؟! "
لم أرفض اهتمام زوجة أبي، لم تكن سيئة على العكس تمامًا كانت لطيفة جدًا وحنونة وتستطيع أن تحضن بصدق كانت روحها جميلة حتى لو لم أشتم منها رائحة خاصة، لكنها وقفت بجانبي وساندتني.
استفاقت جدتي وبدأتْ تستعيد صحتَها، أخبرنا أنها ستحتاج وقتًا لتعود لقدرتها على النطق، ولكن ذاكرتها ستتأثر بسبب مكان الإصابة، لم أهتم واعتقدتُ أن الأمر سيتعلق بأن تنسى مفتاحها أو الغاز أو دواءها أو تنسى أشخاصًا كثيرين قد فارقتهم.
مرت الايام وبدات تستعيد صحتها، وجود أبي وزوجته كان لطيفًا وصنع جوًّا عائليا في الأعياد وبعدما غادروني وأصبح لدينا ممرضة تتواجد في غيابي معها كان كلّ شيء يمضي على ما يرام غير خوفي من كم النسيان، لم تتذكر أبي عدة مرات وحتى أنا رغم أنها كانت تعود لطبيعتها، أصبحت تنسى كثير من الأُمور وتعيد شرب الشيء مرتين أو أكله وتقول لم آكله، ولاحظتُ أنها مقتنعة أنها بفترة زمنية ماضية في مرات، وتمسكها بصور جدي وأمي حولها تمضي معها يومها

وهي جالسة على أريكتها، أعرف أنني أيضًا عانيتُ من ضغط في العمل بعد عطلة العيد ومرضها وغيابي وكنت أعود للبيت منهكة فلم يهمني إلا أن أراها بخير وتتنفس وتقبلني وتبتسم وتشاركني الطعام وتمسك وجهي بين يديها فأعيش مرة أخرى ببيت مع أب وأم وإخوة بسببها.

في صباح نهاية الأسبوع، استفقتُ على جدتي وهي ترفع بأطراف أصابعها بهدوء شرشف سريري وتتأملني، في هذه اللحظة ذكرني وجهها وابتسامتها المشرقة بها عندما كانت تحاول إيقاظي للمدرسة وأنا صغيرة، كانت قد استعادت صحتها بشكلٍ جيدٍ وأصبح نطقها واضح تقريبًا تماما.

قلتُ صباحُ الخيرِ ورميتُ الشرشف بعيدًا لأقبلها وضممتها:

- هذا الحضن الأجمل في العالم، شكرًا لأنك أصبحتِ بخير، اشتقتُ لصباحٍ منك كهذا

-رائحتك يا صغيرتي كما أنتِ منذ ولدتكِ صغيرتي "ماريا"

- جدتي يبدو أنكِ اشتقتِ لأُمي.

لحظتها كنتُ أحاولُ أن أُقنع نفسي أن كلّ شيءٍ بخير وأنها زلة لسان أو نوبة فقدان ذاكرة ستمضي لكن الأمر لم يكن كذلك، منذ تلك اللحظة وأنا في نظرها "ماريا"، وما يجمعني بها في ذاكرتها قام نزيف لعين بمسحه تمامًا بقطنة من زهايمر.

بعد محاولاتي للحديث معها لنصف ساعة بانتظار انتهاء النوبة ومع أملي واقتناعي أنها يستحيل أن تنساني خصوصا أنا، شعرت في النهاية حينها أن هزة

أرضية ضربت السرير وأن الدنيا تتحرك ككفات ميزان فيّ، والأفكار تغدو أثقال تحركني يمينا وشمالا، بقيتُ متشجنة مكاني بعدما أصرّت على النزول لتحضير الفطور "لـ"ماريا""!، وأنه يجب أن آكل طبقي كلّه وأخبرتني عن جدي أو بالأحرى بنظرها والدي أنه خرج مبكرًا لعمله وسيعود متأخرا.

نزلت كما أنا بكم صدمة تجردني من ذاتي، حافية القدمين وبمحاولتي لتمالك نفسي وأن أردد "إيلياء" ستمضي لا تقولي إنها مجرد نوبة وكوني سعيدة يا غبية إنها تظنك جميلتك أمك!!

وجدتها تعارك الراديو القديم الذي تضعه على المنضدة كمنظر فقط لجمال شكله ولذكرياته عندها، وتقول لقد نسي زوجي المهمل إصلاحه، أخبرته بذلك عدة مرات.

أستطيعُ في هذه اللحظات أن أُمسك روحي وأعصرها مرارًا وستبقى مبللة، وصندوق الجدائل الذي أمضى الليلة تلك في حضني لم يكن قادرًا على أن يواسيني، بالعكس تمامًا كان يذكرني بها وبأمي أكثر.

كنتُ أتوقع احتمال الموت لها وأعرف أنه قادم، ولكن أن أُمحى من ذاكرتها وأن أعاني فقدًا من نوع آخر أتذوقه مُرًّا كدواءِ الحمى التي أصابتني كان أمرًا فوق احتمالي، لم أكن بحاجة لنوع فقط آخر!

كنتُ أرتعشُ صباحًا ويتعرقُ جسدي عندما دخلت جدتي لتتفقدني، ورغم اعتنائها بي وكم المشاعر الذي كانت تقدمه في مرضي ولم تغادرني تقريبًا وتقدم لي الحساء بيدها ولكن كنتُ أنا بين كلّ هذا أمامها..

"أمي "ماريا"".

كل ما فيّ كان يؤلمني، بمرضي، وأشعر أنني لا أستطيعُ أن أتحدث وأتنفس، كلّي تحول إلى ماء وقشعريرة الروح كانت أكبر فيّ، كلّ شيء كان حولي كحطام، أعرف أن الايام التي مضت كانت متعبة وقاتلة , وكنت أنسى أن أتناول طعامي ولم أكن أنام ولم يكن الجو في المشفى لطيفًا و"علي" مشغول جدًا في غرفة العمليات يحاول التعلم وجدتي قد مُحيت من ذاكرتها ربما للأبد !

"فاستحق جسدي الراحة وأن ينذرني بحاله"!

حان الوقت لأن أقوم، قمت بتجميع أشرطتي وتمنيت لو أن يأتي ويحضر المقص، كنت ضعيفة ومنهارة لدرجة كبيرة وأريد أن أبكي!، "ولم أعد أريد دور القوية".

الجبلان اللذان تكونا حول عينيّ، ولوني الذي لم يعد فيه أيةّ إشارة لجمال الحياة التي قضيتها، تآكل كلّه واختفى، وأنا أمارس النسيان معها وفقدان ذاكرة زهر اللوز التي تجمعنا!

في اليوم التالي كانت صبيحة الأحد، اتصلت بعلي وبدينيز وطلبت حضورهما، استغرب عليّ لم أقبل زيارته قبلا لبيتي وفي آخر مدة كنت أرد عليه ببرود وعندما يسألني ما بك وما به صوتك كنت أجيبه أن جدتي مريضة ما رأيك؟ وأنتِ تعرف ضغط العمل.

كان يحاول أن يتفهمني وفعلا امتصني جدًا بكل ما فيه من صبر وحبر ومن اكتمال رجل.

أخبرته أن يتصل بي قبل أن يطرق الباب هو ودينيز، كنت لا أريد أن تفتح جدتي ويحدث نقاش من هم "ومن هي "إيلياء""!

بعد الظهيرة رن جرس المنزل، كنتُ أنتظر في غرفة المعيشة بعدما أعلمني عليّ بوصولهما، سألتني جدتي التي تجلس على أريكتها وتمسك بالصور التي يجب أن أجلس يوميًا معها لتريني إياها، ومنذ يومين أصبح الأمر مختلفا قليلًا أصبحت تسرد لي قصصي فيها أيّ قصص أمي.

كان صوتُ الموقد المشتعل وطقطقةُ الخشبِ وهو يحترق كموسيقى الانتظار من عليّ وودينيز اللذين كررا السؤال مرارا ما بك ولماذا تبدين بهذا الشكل وعيناك منتفختان؟ بعدما جلسنا على الطاولة الخشبية لنبتعد قليلًا عن جدتي ووضعتُ لهم أكواب القهوة نصف الباردة لأني كنت قد حضّرتُها قبل قدومهم.

عانيتُ من الحمى البارحة وجدتي التي تجلس هناك لوحدها خلفنا...."وصمتت

"

- أنا لست جيدة

- لماذا لم تخبرينا؟ ما زلت تصرين على لعب دور القوية!!

"قالها "علي" وهو يزيح كوب القهو ة ويضم يديه على الطاولة بشدة "

- أتعتقدان أنني اتصلت بكما لتحضرا إلى هنا لأخبركما أنني عانيت من الحمى؟

- ما بك إذًا؟ قالتها دينيز وهي تحاول أن تنظر لعلي ليهدأ

- أنا "ماريا" ولست "إيلياء"، أو أنا أمي، جدتي هكذا تراني الأمر ليس نوبة، منذ يومين لهذه اللحظة أنا مُسحت من ذاكرتها لا يوجد "إيلياء" بتاتا، وبشكل يشبه

جهاز عرض لتسجيلات قديمة لحياتها أمارس معها يومياتها مع أمي. لقد تعبت وما عدت أقدر أن أتحمل كم الوجع هذا، أعرف أنني تدربتُ كثيرًا وأخبرتك عليّ أنني أعرف أن هناك موعد موت لها ولكني لم أتدرب على أن ألعب هذا الدور الثقيل الذي يذكرني بفقد أمي وأن أرى أن جميع ما يجمعني بها قد مُسح وأراها كأنها تموت كلّ يوم، ولم أعد قوية، أريد أن أبكي وأن أسمع أحدًا يواسني وأن يسندني، الذي أمرُّ به أسوأ من أيّ صورة تصورتها حتى من خسارتي لأمي!

بعد صمت طويل أعطتني دينيز مناديل لأخفي دموعي، حيث كانت قد انضمت جدتي للطاولة واستطردت حديثها المستمر عن قصص أمي .
تفاعل عليّ ودينيز معها وحاولا جعلها تضحك .
وبعدما قررت دينيز أن تصعد معها إلى أعلى لتساعدها في لبس معطفها لنستعد للخروج سويًا إلى مكان قريب حول البيت،
جلسنا أنا وعلي وجها لوجه بعدما جلس مكان دينيز فأصبح مقابلا لي تماما، كنتُ أعرف أن دينيز تعمدت أن تتركنا لوحدنا وأن تتحجج باقتراح الخروج.

- ما الذي يحزنك؟
- أأحتاجُ لأن أُعيدَ لك هذا أو أنك لم ترَها وهي تظنني أمي؟
- لا أبدًا، أعرف أن الأمر صعب، ولكن أعرف أنه حدث، وأستطيعُ أن أواسيك وأريد ذلك وأتمنى لو لدي القدرة أن أحتضنك كطفلة بين يدي، لكن. . .

على كلّ حال اسمعيني جيدا:

جدتك التي تستعد فوق لتخرج معنا عانت أكثر منكم جميعا فقدت زوجها الذي لم يعش فقد ابنته وفقد حفيدته، أما هي عايشت كلّ شيء والأهم أنها عايشت الوحدة، أتتخيلين الأيام التي مرت بها وحيدة وأنتِ في القدس؟، أتعرفين الكم الذي اشتاقته لك ولأمك ولزوجها، وكم مرة راقبت الناس يجلسون سويا مع عائلاتهم فأحست بغصة؟، وكم مرة مرضت ولم تستطع أن تصل لكوب الماء؟

- أعرف أن الذي مرت به سبب ما وصلت إليه.

"بدأت تدريجيا أن أستعيد تمالكي لنفسي وكنت أتبع حديثه كأني سفينة تائهة في بحر وكان هو المنارة لي ":

- معك حق ولكن الحياة أعطتها فرصة لتكون سعيدة.

- سعيدة!؟

- أعرف أنك لم تفكري بهذا رغم أنه أسلوبك وتعمقك، ولكن الوجع أكبر منك ويهزك الآن، ولكن أتعرفين أنها تعوض فيكِ أياما كانت تجلس ساعات تتمناها، أنتِ اليوم لا تلعبين دورًا كما قلتِ، أنتِ تشاركيها ذكرياتها مع أُمك وتعطيها السعادة يوميا، النسيان نعمة لها صدقيني، والله اختار لها أن تقضي أيامها الأخيرة في هذه الحياة سعيدة تتخيل زوجها وتسأل عنه وتشتاقه ولربما ينبض قلبها بالحب والانتظار له كما كانت قديمًا وهو على قيدِ الحياة، وأيضًا تقضي أوقات الأمومة مع ابنتها من دون أن تشعر بالفراق والفقد، هي بقمة

سعادتها وهي تجدل لك جدائلك كما كانت تجدلها لأمك وتخبرك عن قصصها وتنام مبتسمة أنها ستصحو وتراك كما اليومين الماضيين.

- كيف عرفت عن موضوع جدائل أمي؟!

- ألم تنظري إلى شعرك؟ يبدو أنك من تحتاجين لإنعاش الذاكرة وللاهتمام بي والرد على اتصالاتي وتعلم لباقة الحديث مع شخص مثلي.

"تحسست جدائلي، لم أنتبه لها ولم أشعر بقيمة اللحظة وهي تجدل لي فعلا، فابتسمتُ، روحُهُ قادرة أن تغسل روحي مطرا فأبتسم رغم كلّ شيء"

سمعنا صوت دينيز تنادي، صعدت إلى فوق وبقي عليّ ينتظرني، كانت دينيز تقف أول الدرج من أعلى:

- إنها تسأل عنكِ، أعتقد أنها متعبة وطلبت أن ترتاح وأنا أعرف أنها لن تستطيع الخروج، ولكن حاولتُ أن أشغلها ريثما تتحدثين قليلًا أنتِ وعلي، ولم أضجر، لقد أخبرتني قصصًا عن أمكِ وأعرفُ الآن أنك تشبهينها بالعناد، ويبدو أن لأُمكِ صديقة تركية لأنها نادتني أكثر من مرة بزينب، أعتقد أنها لطيفة. "قالت هذا دينيز وغمرتني بقوة، كنتُ أحتاج هذا فعلا، وأعترف أن دينيز كانت الفتاة الأجمل والأوفى في حياتي كصديقة " .

بعدما أخبرتُ جدتي أنني سأودعهم عند الباب وأن الجو أصبحَ ممطرا جدًا وصعبا للخروج وسأعود إليها فقط، نزلتُ مع دينيز إلى الأسفل كان "علي" يقف أمام الحائط المملؤ بالصور فوق الموقد، ويتأملها، التفتْ وهو يكتف يديه كعادته وبنفس نظرته مع انعكاس الموقد من خلفه فأعطاه هالة برتقالية تشع حوله:

- أجد كمًّا مِن الذكرياتِ والصورِ الجميلةِ التي تستحقُ جدتكِ أن تعيشها الآن، إنها في نعمة تسمى النسيان، يا ليتنا نحظى به بشكل مؤقت في بعض الأحيان.

- وأنا أرى هذا أيضًا "إيلياء"، عليّ على حق، والآن تصبحين على خير، وهيا عليّ عليك أن توصلني في هذا الجو الماطر. ودعتهم وعدتُ لأقفَ كما وقف عليّ تمامًا وضممتُ يدي كأنني ألف نفسي، وراقبتُ الصور وابتسمت.

لكن طرفًا من روحي آخر غادرني، بعد أسابيع من افتعال السعادة معها ومراجعات الطبيب، فبراير كان شهر الوداع، في سريرها الأبيض وبلباس نومها المنمق بالدانتيل ووجها الملائكي المبتسم وشعرها الأبيض كبقايا ثلج الشتاء، ماتت سعيدة بما قضته وبلا ألم ذكرى ولا وجع فقد.

لم تُحدث ضوضاءً ولا صخبًا في موتها، كان كلّ شيء هادئًا، إلا روحي، بكيتُ كأني لم أبكِ يومًا بكيتُ أمي وعمر وجدي وكل ما مررت به.

"كانت الشاهد الأول والأخير على كلّ ما مررت به، كانت شجرة اللوز التي ماتت."

فأنا أستطيع أَن أُمسك روحي وأعصرها مراراً ، وستبقى مبللة مهما حاولت بذكرى الفقد ، الذكرى لا تُنسى ،

لَم تَتكون وتَسكن شُقوق الروح ، لتُنسى، وذَاكرتي مَعها ، كَانت "ذاكرة زهر اللوز "، والزَهر إذا ذَبل سَيعود يُزهر داخلي لها في كل فصل من حياتي"

الفصل الرابع عشر

أكليل من زهر اللوز

أُنثى من زهر اللوز

أزهر حيناً لنفسي و أعطي حيناً آخر وَ لرُبما أَختفي وأذبل،

لِأَعود وأنتفض من جديد،

فَلكل فَصل من عُمري حكايةٌ وهدفٌ

"وَجُل ما أعرفه أن رَبيعي الأكبر لم يَحل بعد"

دوسيلدورف، DÜSSELDORF - ألمانيا

مراسم الدفن انتهت، والورد الأخير الذي وضعته في منتصف طاولتها لم يتغير وأخذت تتساقط بتلاته حول إنائها، والأوراق وتحويل إرثها باسمي، البيت هو الشيء الوحيد الذي بقي لي بعدها، والذي طُبعت فيه كلّ ذكرياتي، لم أُغيِّر فيه أيّ شيءٍ كانت تحبه، تركته ليذكرني بها.

جلسنا أنا وأبي بعدما أشار لزوجته أن تصعد لأعلى وأن تتركنا، وكان قراره واضح تستطعين أن تعودي للقدس الآن وتكملي عملك هناك،

- بيت مستقل كبير كهذا وحدك مرفوض، ولا تحتاجينه، وقد يعرضك للخطر، خصوصًا أن حديقته مفتوحة، بكل الأحوال بوجود جدتك كان خطرًا.

- أبي، الذي يجب أن تفهمه أنني بوجود جدتي أو بدونها أستطيعُ أن أحافظ على نفسي جيدًا.

- أنا لا أُجادل.

- أرجوك، وأنا لا أستطيعُ أن أُغادر ألمانيا رغم اشتياقي للقدس.

- ما هو السبب؟، العمل هناك مهم أيضا.

- ليس العمل هو السبب، لا أعتقد أنني لن أعود للقدس بسبب العمل، أنت تعرف مدى تعلقي بها واشتياقي الدائم لعمتي.

-ماذا إذًا؟ قولي.

- "عليّ"

- الشاب الشيعي في المشفى؟

- تقصد الشاب الطبيب الطموح

- أيًّا كان، ما الأمر؟! كنتُ سأسأل وأنتِ اختصرتِ، كان وجوده معنا واضحًا ولم يتركنا.

- أنا الآن أود أن أكون وحيدة فقط , من كل شيء وحيدة !

وأن أُرتب أموري , بكافة الأحوال أنت تستطيع أن تأتي وزوجتك وقتما تشاء ولا تخبرني قبلها حتى !, يمكنك أن تأتي على غفلة وتتفقد الأُمور.

وتأكد يا أبي بأن عليّ لو لم يكن موجودًا في حياتي وبين قوسين- بوصفك له بطائفته - ,

لطلبت مني فقط أن أنتقل إلى السكن التابع للمشفى لأكون بحال أفضل أو ربما أنا توقعت هذا، ولم أحاول التفكير بأنك ..... بأنك متطرف.

- انتبهي لكلامك. كيف تحدثين والدك هكذا؟ أنا لم أقمعك يومًا.

- أنا آسفة، لم أقصد وأعتذر بشدة إن وصلك مني شعور بالتطاول، فعلا أعتذر حاولت أن أعبر لكني لم أفلح، أبي أرجوك لا تقلق، أخبرتني دينيز أصلا أن هناك غرفة في شقتها المشتركة فرغت وأنا أخبرتها أن تحجزها لي، هو سكن تابع للمشفى وللفتيات فقط ومع دينيز. أو لديك اعتراض عليها؟!،

- لا

- وأنت تعرف أنني دخلت الطب يا أبي لأتخصص في الأورام السرطانية، ربما

أُنقذ حياة أمهات سخرني الله لهم، وتعرف أني أريد أن أعود للقدس لأساعد الناس هناك.

- إذًا يجب أن تتأكدي أنكِ إن ارتبطتِ بهذا الشخص ستبقين كلّ حياتك مهاجرة والقدس سترورينها كضيفة.

- لربما، ولكن أليس هو مهاجر أيضًا ومحروم من وطنه؟، على الاقل كلّما سأشتاق سأزورها أما هو؟!، أبي، أنا فاقدة لأي قوة لأتعرف على شخص جديد ولا أحتاج إلى هذا بعد كلّ مواقفه معي، إنه الشخص المناسب.

وأعرف أنه انتظر منك أيّ فرصة ليحادثك، لو كنت تعرف عليّ لوقعت أنت بحبه، ولو كنت تعرف حرصه وحدوده معي لاتخذته ابنك، ولو عرفت أنه يغير المسجد في كلّ صلاة حتى يصلي لربٍ واحد لكان إمامك في الصلاة أو كنت إمامه!، أنا يا أبي كبرتُ قبل وقتي بكثير من يوم فقد أمي، ولم أعِش يومًا كمراهقة بالمعنى الكامل، ولكني أتمسك وأتعلق بمن هم أوفياء وأنقياء وهو كذلك!

"حضنني بقوة فجأة، ومن دون مقدمات، أعرف أنه يحبني، ولكنه لم يعبر يومًا، في هذه اللحظة التي كنتُ أحتاجه لأرتاح، وليتوقف رد فعلي تجاهه ونبرتي، هو أن يحضنني، وبعدها نظر إلى وجهي:

- أنتِ قوية أعرف، ولم أقلق عليكِ، ولكن أنا والدك ولي الحق أن أخافَ عليكِ، ليس بإرادتي، أجد فكرة السكن مع دينيز جيدة جدا، وأرى أن هدفك الآن تخصصك، هناك أشخاص كثر في فلسطين يحتاجونك، تذكري هذا لروح أمك، أما موضوع علي فليس هذا وقته.

"أغلقنا النوافذ وستائر البيت وأغلقت صندوقي الخشبي بعدما تفقدته؛ فزارَ الوردَ الذائبَ وجدائلي ماءُ وجهي.... عندما ذرفت دموع الوداع؛ فسقيتُ بها الذكرى التي لا تموت"

ساعدتني زوجة أبي في جمع أمتعتي ونقلنا أغراضي المهمة إلى غرفتي الجديدة وتفقد أبي كلّ شيء، وغاب قليلًا وانتظرناه، فعاد محملا بأكياس كثيرة ملأت المطبخ، لقد مارس أبسط الحقوق كأبٍ، فشعرت أنني طالبة في سكني في اليوم الأول يوصلني أبي وأمي!

- أنا فخور بك ولدي موعد قبل السفر مع علي، أخبرتك لأني أعرف أنه لن يخبرك، كوني بخير وسأزورك قريبا.

لم يخبرني عليّ بموعده مع أبي ولم أخبره أنني أعرف، أفهمه جيدًا، لا يريد أن يتوتر قبله بالحديث معي، كان مستعدًا لكثير من الاحتمالات معه، أولها أو كلّها اختلافاتنا بكل شيء، ولم نتحدث عن الموضوع بتاتًا حتى بعد سفر أبي وأنا لم أُرِد التحدث ولا سماع أيّ أمرٍ يزعجني، كنتُ قد اكتفيت.

في هذه المرحلة الجديدة ومحاولتي للاندماج مع البيت الجديد وأن أستمتع بوجودي مع دينيز ومحاولات صنعنا للطعام والاستعانة بمطعم المشفى بعد كلّ محاولة فاشلة، بدأت أركز على عملي والتطور به، واستنفدتُ أيّ فقد أو شوق، بتعاملي مع المرضى الذين يصارعون المرض هم وذويهم، كنت أشغل نفسي يوميًا بكم هائل من تبادل المشاعر والحياة فأصل إلى فراشي منهكة من كلّ شيء حتى" علي"، تعاملتُ معه أشهرًا كصديق فقط، أيّ من دون أحاديث عميقة، بالأصل

لم نعلن حبنا رغم كلّ الأعوام، أو ربما كنا نمارس الحب بالأفعال كالحوار والاهتمام والاحترام والاحتواء والمساندة والمناورات والصمت، ومع الوقت تعلمت "أن هذا ما يسمى الحب وليس كلّمة".

مرت شهور على هذا حتى حل أغسطس، شهر عيدي، تفاجأتُ بزيارة والدي وزوجته ودعوتي أنا ودينيز لنحتفل به سويًا على العشاء، فاعتذرتُ لعلي بعدما طلب مني منذ شهر أن أكون يومها معه.

عرضت عليّ دينيز أن ألبس فستانا جميلًا جدًا كانت قد حصلت عليه كهدية من تركيا ولكنه أصغر من مقاسها، كان جميلًا جدًا خمري اللون بقماش ينسدل ببساطة ويتحرك مع الهواء، وله أكمام طويلة واسعة، قبلت هذا بعد إصرارها وتأكيدها أنها ستأخذ قطعة من ملابسي بعيدها القادم!

كان المكان لطيفا جدًا، مطعم ذو طابع تركي ورائحة الطعام تتدفق كأنك على أطلالة جبلية في "مدينة طرابزون"، جلسنا على الطاولة وطلبت مني زوجة أبي أن أُرافقها أنا ودينيز إلى الحمام، ذهبنا وعندما عدت وجدت الطاولة التي جلسنا عليها فارغة، قلت لزوجته:

- يبدو أن أبي في الحمام أيضًا.

وما أن التفتُّ حتى وجدت طاولة كبيرة في الجهة المقابلة، أبي ومجموعة من أصدقائي وعلي، وأشخاص لا أعرفهم، لم أكن أتوقع شيئًا كهذا، ولم أفهم الفترة

الأخيرة أيّ شي، كنت أحاول أن أنشغل بالعمل عن كلّ الأشياء غير الواضحة من عليّ خصوصًا وأبي!

أعلن أبي خطوبتنا بعدما وقف عليّ ورجلٌ كبيرٌ لا أعرف إلا أنه عراقي، وتحدثا، وقرأ الجميع الفاتحة وأنا فقط أهزُّ برأسي للإجابة عن أيّ سؤال، وتبادلنا الخواتم وسط تصفيق وفرحة الحاضرين من الذين أعرفهم أو الذين حضروا مع عليّ لينوبوا عن أهله، وحتى الطاولات الأخرى. ورأيتُ أهله عبر الهاتف وهم يشاركوننا الفرحة ولكني لم أستطع أن أقول شيئًا غير شكرًا، ولم يكن لدي رد فعل ولم أبكِ، كنتُ مبتسمةً ابتسامةَ فتاةٍ بلهاء فقط، ويظهر هذا واضحا في الصور، فقط همست لدينيز على الأقل كنتُ رتبتُ شعري هذا لو أخبرتِني أو لمَّحتِ لي.

علي لم يكن له بكل هذا، أعرف أنه لم يخطط للفكرة وأنها من تحضير دينيز التي كانت تذهب إلى غرفتها للحديث على الهاتف وتتركني مؤخرًا، هي من رتبت هذا كلّه وترحيبها بأبي وزوجته وكأنهم أهلها وليسوا أهلي كان واضحًا، وتنفيذهم لكل أصول طلب الزواج والجاهة كلّها تمت سويا بتخطيطهم.

طبع عليّ ليس هكذا بالمفاجأت، "هو أبسط من هذا وخاص جدا، يستطيع بتصرفاته الخاصة بيننا أن يحول الأُمور من بسيطة لعظيمة، لكن شيئا واحد كان منه ومخطط، هو فستاني ! "، ودينيز أتمت المهمة وأوصلته!

بعد كلّ الذي مررت به، كنتُ أحتاج فعلا أن أكون بجانب عليّ بشكل دائم، وخلال شهر ونصف من التحضيرات والنزول المستمر للسوق بسبب أفكار زوجة أبي وأبي بتحضيري وجلب كلّ ما أحتاج، حان موعد زفافي كما طلبت تماما.
مكان جميل صغير فيه أصدقاؤنا وفستان بسيط، وأنا وعلي ويكفي هذا، اكتمل بوصول عمتي وياسر وسارة قبل الزفاف ولنقل أيضًا بعمي وزوجته، التي تهمس دائمًا بأذن عمتي والأخيرة أتقنت أن تتحول لصماء معها.
الخريف وموعد زفافنا هو التوقيت الذي لو كنت تمنيت وخططت معهم منذ أشهر لاخترته، وبعدما حصلنا أخيرا عن موعد من البلدية وأتممنا الإجراءات وحصلنا على أجازة، حان موعدنا بتوقيت خريفي جميل.

كان حفل زفافي كما أريد تماما، هادئًا وتتناثر السعادة في تفاصيل غرفتي وأنا أُنهي آخر التفاصيل لاستعدادي، أو لم يكن هادئا جدًا بسبب علي، سمعنا فجأة أصوات السيارات وموسيقى، عليّ أحضر أصدقائه بزفة كأنه في العراق، ونزل يرقص في الشارع معهم وهم يزفونه إلى منزلنا، نظرتُ من الشباك وضحكتُ حتى نزلتْ دموعُ الفرح ورأيتُ جميع الشرفات للبيوت المقابلة وهي تنظرُ إلى هذا الحدث الغريب أمام منزل يمتلئ بمجموعة من الشباب التي تلبس بزات سوداء وتزين جيبها بالورود والكثير من السيارات التي تتغطى بالورود، منهم من كان مستغربًا ومنهم من رأيته يصفق ويرقص.

رأيته يشد أبي ويحاول أن يراقصه أمام المنزل وأبي يحاول أن يجاريه بحركات مضحكة جدا، ودينيز مسؤولة أن تحافظ على النقل المباشر لعائلته وأمه بالعراق عن طريق هاتفها وهاتف عليّ والتقاط الصور لنا.
أقفلت عمتي لي فستاني من الخلف، تمامًا كما فعلت منذ سنين لها، وألبستني طرحتي وثبتت إكليلي كشكل حقيقي من زهر اللوز الذي كنتُ في فترة تحضيري أهتم باتمامه فقط.

في اللحظات الأخيرة ونزولي إلى الأسفل كانت سارة ترمي الورد على الدرج الخشبي وأنا أُمسك بيد أبي، شممتُ رائحة الفرح وأرواحهم، أمي، عمر، جدي، وجدتي.
في نهاية الدرج وقف عليّ ينتظرني، وأثناء نزولي كنت أراقبه كم يبدو وسيما وكيف يبتسم وكلما اقتربتُ لمحتُ عِرقَ جبينِهِ الأيسر بارزًا أكثر وأكثر، وأخذت أقيس من بداية يده اليمنى إلى اليسرى المكتنزتين حدود وطني الجديد.
كنت أنزل ببطءٍ وأنا أسمتع إلى صوت كعبي الذي كان يدق عاليا، كمُنبهٍ للحياة، إنه يوم فرحي رغم كلّ شيء مررت به. كان موعدي لأزهر كزهر اللوز، أذكر أن الطرحة التي كانت تكلل وجهي كانت سببًا باحتمال وقوعي على وجهي أمام عليّ مرارًا وربما أبي معي.

ولحظة أن رفع طرحتي وقبل رأسي وضم وجنتي بيديه؛ اعتراني شعور بأني قد وصلت إلى مينائي ومحطتي الأخيرة وأن الله قد عوضني به، فركع قلبي لله وسجد في داخلي.

وعندما ركبنا السيارة وانتهت معاناة ادخال ذيل فستاني:

-ألم أُخبرك عن نظرية منذ سنوات لمَ لمْ تسألني عنها؟

-"إيلياء" ليس وقتك الآن، سأنادي دينيز،

" وفتح الشباك ونادى "

-دينيز تعالي...

ضحكنا من قلبنا بشكل هستيري، وصلت دينيز وهي تركض ماذا هناك ونحن لا نكف عن الضحك، فهزت برأسها:

- بالعادة أرى العروسان يتغازلان، أما أنتما فأعتقد أن المكان الأفضل لكما هو ملعب الأطفال. هنالك واحد في طريقنا ما رأيكما؟

أكملنا الضحك ثلاثتنا، ودار الشريط كاملا في رأسي لأول لقاء لنا في مقهى الكلية.

في أثناء قيادته فجأة قال وهو يقف على الاشارة:

- أعرفها !!

إنها أنصاف الأرواح، وأنا أومن بها،

والآن سنذهب لنحتفل ببداية حياة أتمنى أن تكون كما نتمناها، أريد أن أعدك بالكثير ولكن لن أفعل حتى لا أخلف وعدي معك يومًا بدون قصد أو مجبرًا بقصد، سأحتفظ بها لنفسي، ولكن أريد أن تعرفي أنك هنا

" عائلتي كلّها "

على الرغم من فقدي إلا أنني يومها قدَّرتُ فَقْدَ علي لأهله أكثر بكثير، أنا أهلي

جميعهم حولي أو بالأحرى المتبقون،

" وأننا عندما ننظر لفقدنا فقط لن نرَ فقد الآخرين الذي قد يكون أعظم!".

كنتُ أعرف أنني بنظره أساوي وطن وعائلة وأم، فأخاف كلّ يوم ألا أكون هذا له، "لأنه كان فعلا زاوية الكتف التي تساوي وطنًا لي، وأول نفس زار وجهي من رجل، وزار حدودي، وأول من جعلني دائمًا في أصعب لحظات الحزن أبتسم، إنه المتعجرف الطموح الذكي الحنطي ذو الذقن، الذي تختفي بلاغتي وتحمر أبجديتي خجلا كلّما حاولتُ أن أصفه، الصديق الرفيق والمتحدث معي بلغة العيون، الذي يستطيع أن يشبع شوقي إليه بنظره وسط حشد ويدير وجهه ويكمل حديثًا مُهمًا، الثبات الكامل لانفعالاتي، والكبير الذي أراني أنني أستطيعُ أن أحتوي بيدي الصغيرتين شخصًا بحجمه لأنه يريد هذا ويسعد به، يستطيع أن يجادلني ساعات بحديثه وبصمته اللبق أيضًا، من دون أن يفقد نظرته الثاقبة ولا لكنته وطريقته التي ترفع الرايات البيضاء جميعها داخلي، تمامًا كما أستطيعُ أنا أن أُعلن عليه انتصاراتي كثيرًا وأترك أعلامي المعبقة بزهر اللوز مثبتة كأدلة على مساحاته.

في قصة حياتي هذه أتذكر أمرًا سمعته من بروفيسور في مادة الفيسيولوجي -وهو عرَّابي في الطب- " د. ناجي اسكندر " وربطته بشكل غريب بها:

"أن الشخص الذي يفقد وعيه أثناء الطيران ويصل إلى المشفى فاقدًا سمعه، تكون اللحظة التي فقد فيها السمع عند الهبوط، أي أن الأذن لم تتأثر في الإقلاع ولا خلال الطيران المستمر المستقيم، وإنما بالهبوط بشكل خاص، وبسبب آلية معينة للتعامل مع الضغط داخل الأذن".

"وهكذا أرى الحياة أنا، المعضلة في لحظة وجعنا وسقوطنا وفقداننا للإحساس والإدراك بها، في هذه اللحظة علينا أن نقوى ونستعيد وعينا، لنحاول أن ننجوا بأنفسنا"!

وبهذا كلّه تَعلمتُ أن الصخور الَتي أسميتها يومًا رُكامًا من الحياة هُدم ضِدي قد تكون يومًا ما حجرَ أساسٍ لسُلمٍ يرفعني، أو يَسند كُبر حُلمي وكُهولة نفسي، وأن حُطام الأشياء قد تكون خامت لبُنيانٍ عظيمٍ شاء أن يُقام نَصباً تذكاريًا لِتعبي وصبري وعدم انجرافي لنزوات الحياة أو محاولتي لهذا! ولكن ليس الكل منّا تعلم وتاب وذاق حلاوة التمنع عنها.

و تَعلمتُ أن المُبرراتَ ضَعفٌ، والحزنُ طفلٌ صغيرٌ يجبُ أن يأخذ حقه في مهدي، حتى يكبر ويتحول لفراشة تطير بعيداً عني.

تَعلمت أن إحساسك بالفشل، قد يكون معرفتك لقيمةِ النجاح جيداً، وأن النجاح الحقيقي هو سعادتك بما تصل إليه.

وَتعلمت أن أصنع لِحياتي حُدوداً كَمُربعٍ متكاملٍ بِزواياه الخاصة:

حُلمي، ثقتي بِنفسي، عزلتي بعالمي الخاص،

وأصنع في الأخيرةِ باباً، أُخرج منه المُقارنات، الأسس الاجتماعية البالية والاستسلام، وأن أتقن وأحترف فن الابتعاد، فأعيد الأشخاص غرباء.

تَعلمت هذا كلّه، ولذا عذراً على قسوتي و عقوقي لنفسي أحيانا كثيرة.

وتعلمت أن في كُــل القصص الجَــميلة والأسماء التي تَوشم في ذاكرتنا والمواقف التي تُعلمنا ، تَــتكون دوماً حَـلقة غيـر مُــفرغة لا تَــخرج مُنها الذكرى ولا يَــدخل إليـها النسيــان .

فأن تَــنسى يــعني أن شَـغفاً قُتل ، وَدائــرتك المُقدســة فيكَ أُستـباحت وما تَعلمت أصبحت ندباً كجرح وليس درساً يُكسبك القوة .

وأن الأشياء أصبحت فيكَ لأشخاصك من دون أسماء والقصص تحولت لخُرافة، وبذالك يُـصيب ذكراك نوعاً من الموت الســريـري ،

يُـسمى " مَـوت الشــغـف " .

الشَـغف هو أساس كينونة الأشياء والأسماء ،لا تفقدوه.

" المثالية هي الوصول لأفضل نسخة معدلة منك بمواجهة عيوبك، لسنا مثاليين ولا ندَّعي المثالية، لكننا دومًا نحاول أن نقترب منها قدرَ الإمكان، وبحضور الضعف والتشتُّت والفتن والطائفية والظلم، لن تكون البيئة مناسبة لأن تنمو وتغدو أفضل أن انتظرتها أن تتغير، فحاول أن تُصلح تُربتَك الخاصة وستُزهر كزهرِ اللوز وأكثر "

النهاية

هُنالك كـتف

سَـتختصر فيه دوران الكرة الأرضية القابع في رأسك، يتثاقل لسانك تبحث عن بداية الحديث عن كلّ هذا الذي يدور ويدور، ثم تبتسم وتختار فقط الصمت في زاويةِ وطَن على شكلِ كَتِف.

دوسيلدورف، ألمانياDÜSSELDORF

رسالة

إلى "إلياس" ،

بعد أعوام:

إذا وصلت إلى هذه الصفحة، ستكون قد أتقنت اللغة العربية كاملة، أنا فخورة بك صغيري!

إن كنت تُريد أن تهرب من هذا العالم وصخبه، اهرب دومًا إلى الكتب ولي.

أحبك

صديقتك ماما

حقوق النشر والتوزيع محفوظة

ببلومانيا للنشر والتوزيع